

ما وراء الطبيعة أسطورة القادم ليلا

يقترّب القادم أكثر .. أكثر .. لكنه ما زال مغموراً في الظلال .. بصوت غريب كأنما هو هلوسة سمعية لا وجود لها يقول: - "أنت لي .. لا تنس هذا .. " لم يكن هناك داع للتلفت ولا البحث عمن يوجه له هذا الكلام .. إنه يخاطبك أنت .. هذا واضح .. وهذا الصوت لا يمت لهذا العالم .. كل شيء فيهما يمت لهذا العالم .. " أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر.." ثم يتراجع الظل للوراء وهو يردد: - "لا أحد .. لا أحد .."

المقدمة

الفصل الأول "أثار الحادث"

الفصل الثاني "لغز طلي سهل"

الفصل الثالث "بحث غير مجد"

الفصل الرابع "من أنا..؟"

الفصل الخامس "أنه هو.."

الفصل السادس "ساعدني يا دكتور.."

الفصل السابع "ماذا رآه؟"

الفصل الثامن "سبعة"

الفصل التاسع "زيارة أخيرة"

الفصل العاشر "بداية خيط"

الفصل الحادي عشر "المواجهة"

Daydamony

هو ...

لا يوجد الكثير مما يقال هنا ..

لقد انتهى الانفجار ...

كان الدخان في كل صوبه ومن العسير أن ترى يدك ذاتها .. لو أردت أن تحك رأسك لجهلت

الطريق إليه .. تلك الرائحة .. رائحة البارود ورائحة الشياطين ورائحة الـ .. سواء ؟

نعم .. للأسف .. هناك أجساد محترقة وسط هذا الزحام .. حين ينقشع الدخان قليلاً ترى

تلك الكتلة من الأجساد التي تحولت إلى عجيب .. مشهد شنيع لهذا لن أصفه من فضلك ..

بعض قطع الخشب تحولت إلى شعلات صغيرة تلفظ أنفاسها .. لقد كانت هنا مأساة

لكنها انتهت لحسن الحظ .. انتهت نهاية دامية لكنها انتهت .. ككل شيء أليم .. المريض

الذي يعوي ألماً وقد غرق في دم وصديد ثم يأتي الموت ليداوي كل هذا في لحظة ..

بنهض وهو لا يعرف حقيقة إن كان بنهض ..

كانت دوامات تجتاح رأسه فلا يعرف من هو .. ولا كيف تتحرك تلك الأعضاء الكثيرة الخارجة

منه .. هناك يذان وقدمان .. هناك فم وأنف وأذنان .. كلها موجودة لكنه لا يملك أدنى فكرة

عن كيفية التحكم فيها ..

أخيراً عرف أن عليه أن يأمر ذراعه لتتجه إلى أنفه ..

حين عادت الكف كانت ملوثة بالدماء .. إنه في حال سيئة حقاً ..

ثم ذلك الصداع !! تباً للصداع !! هناك كرة معدنية تتأرجح داخل رأسه وتضرب جدران

جمجمته من الداخل (بونج - بونج) .. يجب ألا يتحرك .. يجب ...

صوت صراخ:

- تعالوا !! هناك حي هنا !-

ثم ذلك العويل المميز لسيارات الإسعاف ..

إنه يعرف أن هذه سيارة إسعاف .. يعرف أن المكان هو مخزن قديم .. كان كذلك لأن أكثره

تهدم .. فيما عدا هذا لا يعرف شيئاً على الإطلاق

- إلي بـجـهـاز مـحـلـول و زـجـاجـة مـن الـدكـسـتران !-

- لا يـوـحـد يا دكـتـور ..-

- إذن إلي بزجاجة محلول ملحي .. دكستروز .. زيت تموين .. أي شيء !... إنا نفقده !!-

كان راقداً على المحفة ينظر للسقف المتسخ للمستشفى العام ويتساءل: لماذا يصرخ هذا الطبيب الشاب ؟ غالباً هو معدوم الخبرة . هذا هو السبب الوحيد لأن صاحبنا لم يشعر قط بأنه يموت .. إن ذهنه صاف ووعيه هادئ .. لا يوحـد ما يدعـو إلـى كل هذا الصراخ وهذه الهستيريا ..

يشعر بالإبرة تنغرس في وريده .. ثم يشعر بالسائل البارد يتدفق ..

إن هذا المصباح في السقف يطارده كأنه طبق طائر كابوسي يراقب الموقف ..خبرة

مشاهدة العالم من أسفل .. بالضبط من القاع .. يقولون إن منظور (عين الطائر Bird's eye View) يجعلك ترى كل شيء ويشعرك بالتفوق، فماذا عن أن ترى كل شيء من هذه الزاوية حيث كل شيء أكبر وأقوى منك ؟.. لابد أن هذا هو منظور (الحشرة) أو (النملة) .. يغمض عينيه ويحاول أن يهدأ ..

تتداخل الرؤى من جديد .. الإحساس بالزمن يختلط بأي شيء آخر ..

يسمع من يقول له:

- هل تستطيع الإجابة ؟-

ثم من يقول له:

- هل تعرف ما حدث ؟-

ومن يقول له:

- من أنت ؟-

لكنه بالفعل لا يعرف أي شيء عن هذه التفاصيل .. المفترض أن يعرف اسمه لكنه لا يعرفه .. والأهم أنه لا يشعر بقلق لذلك .. لماذا يجب أن يحمل كل واحد اسماً ؟.. هذا لن يغير شيئاً.. الحشرة التي وجدت في الفناء الخلفي وأنت لا تعرف اسمها .. هي مثلك لا تعرف اسمها .. هل هذا يمنع أنها موجودة ؟..

يغمض عينه ويتجاهل الأصوات ..

صوت آخر يقول:

- أعتقد يا (عماد) بك أنه فقد ذاكرته ..لن تتمكن من أخذ أقواله-

صوت آخر يقول:

- هذا يحدث بعد الصدمة .. إنه تفاعل (ما بعد الارتجاج) .. أعتقد أنه سيسترد ذاكرته قريباً ..

-

- نرجو هذا ..-

ثم يتنحج الصوت بوقار ويملي شيئاً لواحد بجواره:

-

-وكانت حالة المصاب لا تسمح باستجوابه، لذا قررت النيابة تأجيل أخذ الأقوال إلى حين

تحسن حالته ..-

حسن ..

هذا هو الوقت الذي يمكن للعجوز (رفعت إسماعيل) أن يظهر فيه ..
كنت في تلك الفترة قد انتهيت من إحدى قصصي التي لا تنتهي .. من قرءوا منكم قصتي
مع النجس والرقم المشئوم، يمكن أن يعرفوا بالتقريب كيف كنت في تلك الفترة ..
لقد عدت أمارس عملي، وبدأت لي حكاياتي السابقة بعيدة جداً.. أحب حين أنهي فصلاً من
حياتي أن أتخلص منه فلا أحمل معي شيئاً منه ..

ذهبت للمستشفى ذلك الصباح، فجلست أولاً في مكثبي أرشف الشاي وأطالع جريدة
الصباح ..

كان هناك حادث انفجار مرووع قد وقع في مخزن قديم في نفس المنطقة .. يبدو أن خمسة
أشخاص قد لقوا حتفهم، والصورة المنشورة غير واضحة لكنها توحي بإمكانات بشعة ..
يبدو أنه انفجار أسطوانة غاز أو شيء من هذا القبيل .. اعتدت أن يكون الموت مدققاً أليفاً
يختار كل ضحية على حدة، لكن هذه الملعونة المجنونة من الأشلاء والبقايا شيء يفوق
تحملي وفهمي للأمور ..

مرت عيناى على الخبر بسرعة ونسيت كل شيء عنه خلال ثانيتين ..
وبينما أنا أطالع تقريراً عن توترات الهند وباكستان التي لا تنتهي أبداً، دخل د. (رأفت)
صديقي العتيذ الغرفة، وجلس أمامي

قال لي:

- كانت المستشفى في هرج ومرج أمس .. لقد جلبوا ضحايا الحادث إلى هنا . -
- رفعت رأسي ورشفت جرعة من الشاي قائلاً:
- هل يوجد من يصلحون لدخول المستشفى ؟ .. على قدر علمي لم ينج أحد .. -
- لكن سيارة الإسعاف جلبت الجميع هنا .. على كل حال لم ينج إلا واحد .. -
- لا بد أنه تحول إلى عجين. -
- ليس بالضبط .. -

وخرجنا من المكتب وبدأنا نمارس طقوس حياتنا اليومية .. كان هناك طن من المشاكل، وقد قررت أنني سأقيم احتفالاً صغيراً في اللحظة التي يطلقون فيها سراجي .. على أنه في الواحدة بعد الظهر جاء من يخبرني إنهم بحاجة إلي في قسم الطوارئ .. يبدو أن الأمر يتعلق بذلك الناجي الأخير .. وكان هذا أمراً روتينياً يتكرر من حين لآخر على كل حال .. فلأنه بسرعة وأعود لداري ..

اتجهت إلى هناك لاهتأ من جهد صعود الدرج - طابق واحد طبعاً - فوقفت أجفف عرقى وألتقط أنفاسي .. إن قسم الطوارئ أقرب إلي حلبة سباق خيول أو فقرة في السيرك القومي .. لا بأس من أن تتلقى دفعة تلقىك أرضاً أو يضربك احدهم كوعاً يصيبك بنزف في الرئة ..

جاء الطبيب الشاب المكلف بالطوارئ وهو من الطراز العصابي الذي يتلمس عويناته كل ربع دقيقة ولا يكف عن بعثرة الأوراق في كل مكان .. صافحتني بيد باردة وقال: - نرجو ألا ترهقك .. هذا المصاب جاءنا أمس في حادث الـ ..

قلت في ملل:

- نعم . نعم .. انفجار أسطوانة غاز .. الخ .. اختصر يا بني ..

- إنه يعاني حالة فقر دم متقدمة .. هذا ..

وأوقع عشرات الأوراق وهو يبحث عن ورقة بعينها .. حتى شعرت بأن العصاب يتسرب إلي أنا نفسي .. أريد أن أهشم رأساً أو رأسين ..

- لحظة .. هو ذا .. لا .. انتظر .. هو هنا ..

ثم صاح في ممرضة عصابية بدورها يطلب صورة الدم .. فانطلقت تبحث عنها فقط ليتذكر أنها - الصورة - في جيبه .. أخيراً أخرج ورقة مكرمشة كأن كلباً كان يلوكها وناولني إياها .. الهيموجلوبين - Hemoglobin - وهو صبغ الدم الحيوي - لا يتجاوز ثلاثة جرامات .. هذا رقم مخيف بدون أية تفاصيل طبية أخرى ..

قلت له في صبر:

- أولاً لتتفق على شيء .. أنا أشك بشدة في هذا الرقم .. لا بد أن صاحبه قد توفي منذ ساعة ..

- قمنا بإجراء التحليل ذاته مرتين ..

- ثانياً لا أعرف سبب دهشتك لأن جريحاً فقد دمماً .. علي قدر علمي كل الجروح تنزف دمماً .. هذه هي خلاصة الخبرة التي كونتها بعد كل هذه الأعوام في ممارسة الطب -

اتسعت عيناه رعباً من وراء عويناته التي تكبر العينين أصلاً وصاح:

- لكنه لم ينزف يا سيدي .. !... لا يوجد جرح واحد في جسده .. إنه سليم كالجرس !-

هو القادم ليلاً...

فتح عينين محمرتين ونظر لي ..

قلت له في صبر:

- هل تعرف من أنت؟-

إنها تلك النظرة الخاوية الغبية الزجاجية .. أعرفها وأفهمها .. ليست لدى هذا الشاب أدنى فكرة عن ذاته .. من الصعب أن تتعامل مع شخص لا يعرف من هو، لكن ليست هذه أعقد مشكلة أواجهها في حياتي ..

كان وسيماً - برغم حالته السيئة - له ملامح دقيقة أقرب إلى الشفافية .. هذه الوجوه الحساسة التي تدل على ذكاء عظيم حتى وإن كانت عيناه خاويتين مظلمتين .. أعتقد أنه في الثلاثين من العمر ..

أما الأهم فهو أن هذا ليس وجه رجل يعاني من فقر دم إلى هذا الحد المريع .. قلت للطبيب الشاب:

- إنه ملوث بالدماء .. -

- ليس هذا دمه بل دم الآخرين .. لقد حسبناه جريحاً في البدء ..-

- حتى لو افترضنا أن رقمك صحيح - فقر الدم يحدث لحشد من الأسباب .. ربما هي عملية تكسير واسعة النطاق لكريات دمه الحمراء .. ربما توقف نخاعه العظمي عن العمل .. لا ينبغي أن يكون النزف هو السبب ..-

قال في توتر وهو ينظر لشخص ما لا وجود له:

- حينما نجد شخصاً مصاباً في حادث، يخطر لنا أول شيء أنه

انحبت على المصاب وتفحصته بدقة .. لا يوجد شيء مريب فيه .. أعتقد أنه يحتاج إلى مزيد من الفحوص المعملية كي نحكم على سبب فقر الدم .. لو كانوا يعتقدون أنني

سأفعل مثل (أوسلر Osler) وأنشئم الهواء، ثم أعلن التشخيص الصحيح فهم مخطئون ..

سألت الفتى بصوت هادئ:

- أنا ادعى (رفعت إسماعيل) .. طلبوني كي أعنى بفقر الدم الذي تعانيه .. هل تذكر ما حدث؟-

بلل شفته السفلى بلعابه وقال بصوت كالفحيح:

- لا أذكر .. وجدت نفسي وسط حث ودخان .. كان هذا مربعاً ..-

- ولماذا ذهبت إلى هناك؟-

- لا أعرف ..-

قال الطبيب الشاب وهو ينقل ساقاً بذل ساق:

- إنه يعاني (ما بعد الارتجاج) .. يعتقدون أنه سيتذكر كل شيء خلال أيام ..-

كان متوتراً بالطبع لأن طناً من الأعمال ينتظره ولا وقت يضيعه أكثر مع مريض واحد .. مشكلتي هي أنني لا ألقى إلا أشخاصاً أكثر مني انشغالاً في كل مكان حتى لأشعر بالخجل من نفسي .. لهذا أمسكت بتذكرة المريض وشرعت أدون رأبي في

الموضوع طالباً حشداً من فحوص المختبر ..

قلت له وأنا أعاد المكان:

- بمجرد انتهاء الفحوص أطلبوني ولسوف نعيد تقييم الموقف لكن لا يوجد سبب يمنعك

من إبقاء هذا الرجل حياً إلى ذلك الحين .. هذا المريض يحتاج إلى نقل دم عاجل-

- نحاول ترتيب هذا ..-

هكذا أنهيت عمل هذا اليوم، ورجت أحلم بالعودة لداري فالنوم ..

الليل يعم المستشفى ..
لا يوجد ظلام بالمعنى الحقيقي للكلمة لكن هناك الكثير من السكون .. من الأضواء
الخافتة .. همسة من ممرضة لأخرى .. أنين مريض .. عواء قط تسلك من مكان ما لا يوحى
أبداً بأنه قط فعلاً...

وفي الظلام يرقد ذلك الشاب الذي عجزنا حتى اللحظة عن معرفة اسمه .. يرمق
السقف ..

أحياناً ينظر إلى الفراش المجاور .. حيث يغفو مريض آخر أسوأ منه حالاً .. لكنه يحسده
بشدة .. برغم كل الألم والمعاناة والخرابيم الخارجة والداخلية منه وإليه فإن هذا البائس
يعرف من هو .. حتى لو مات فهو يعرف اسمه .. يعرف أنه (إبراهيم) أو (شفيق) أو .. وأنه
قد مات ... هناك أرضية يقف عليها قبل أن يرتفع للسماء أما هو فلا يعرف شيئاً على
الإطلاق .. فيما عدا افتقاره إلى الكينونة بالكامل .. فإنه في حالة صحية ممتازة ..
ترى هل يسترجع شيئاً؟ .. لا يعرف ..

ثمّة ذلك التشوش الذهني الذي تعرفه حين تصحو من النوم على رنين الهاتف أو جرس
الباب .. شعور لحظي مزعج يزول سريعاً لكن المشكلة هنا أنه دائم ..

رباه !! يشعر بالاختناق ! .. يريد أن يزيح هذا الغطاء الثقيل عن نفسه فلا يقدر ..
يقول الأطباء إنه سيعرف الحقيقة خلال أيام .. هل يستطيع الانتظار ؟

سمع صوت خطوات فنظر إلى مدخل العنبر ..

إنها الممرضة اللطيفة على الأرجح .. فتاة سمراء جذابة لا تكف عن الابتسام وكانت
نوبتية الليل تريحه بشكل خاص لأنها - الفتاة - تأتي من عالمها الساحر لتسأله عن حاله
ثم ترحل ..

لكن لا ..

هذه الخطوات أثقل بالتأكيد من خطوات فتاة في الثامنة عشرة من عمرها تنتعل حذاء
مطاطياً...

نظر بعناية أكثر إلى مدخل العنبر ..

في البدء تصور أن هذا خداع بصر .. الظلال تجيد هذا الطراز القذر من الألعاب .. وهو لا
يعرف من هو لكنه لم ينس خبرات الغيباء التي عرفها ..

هذا الخيال الطويل .. الطويل جداً حتى ليوشك على لمس سقف العنبر يترمي أمامه ظل
طويل جداً تضاعف عدة مرات . لو كان الضوء قادراً على تفسير الظل فكيف يفسر مصدر

الظل ...؟

والرأس ..!

لا يوجد رأس لهذا الشيء .. إن الكتفين ينتهيان فجأة ... ولا يعلوهما شيء !!
هب في الفراش ونظر من حوله .. كل المرضى في غيبوبة لا يرون ما يراه هو .. وقد
احتبس الصراخ في حلقه فلم يخرج أي صوت ..
يقترب القادم أكثر .. أكثر ..
لكنه ما زال مغموراً في الظلال ..
بصوت غريب كأنما هو هלוوسة سمعية لا وجود لها يقول:
- أنت لي .. لا تنس هذا .. -
لم يكن هناك داع للتلفت ولا البحث عمن يوجه له هذا الكلام .. إنه يخاطبك أنت .. هذا
واضح .. وهذا الصوت لا يمت لهذا العالم .. كل شيء فيه لا يمت لهذا العالم ..
- أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر .. -
ثم يتراجع الظل للوراء وهو يردد :
- لا أحد .. لا أحد .. -
بعد دقيقة تواري تماماً ..
لدقائق ظل صاحبنا في ذات الوضع الثابت .. وضع من يوشك على الوثب من
الفراش .. العرق يغمره وصرخة مكتومة تحاول الفرار من بين شفتيه لكنها لا تستطيع
ما معنى هذا ؟.. ما هذا المسخ الذي جاء ؟.. وهل يعرفه ؟.. من الواضح أنه يعرفه ..
كانت هذه هي الزيارة الأولى للقادم ليلاً
لماذا أصفها بالأولى ؟.. لأنها تكررت في الليلة التالية بنفس التفاصيل .. لم يصف كلمة
واحدة أخرى ولم يختصر كلمة .. كأنه شريط سينمائي يعاد عرضه ..
ومن جديد تتكرر الأسئلة: من هذا القادم ليلاً ؟.. لماذا جاء ؟..
والسؤال الأخطر: ربما هذه هلاوس .. ربما أنا قد أصبت بالخيال ..

فيما بعد عرفت أن الفتى لم ينتظر أكثر ..
لن يبقى هنا دقيقة أخرى ولن ينتظر زيارة رهيبة تالية ...
لقد أصابه دعر حيواني غريب يسهل فهمه .. وعلى الفور وثب من الفراش وكان يلبس
ذات الثياب التي وجدوه بها .. لا تنس أن هذا مستشفى مجاني لا يملك زياً يلبسه
للمرضى ..
وجد خفين تحت فراش المريض الذي يلاصقه فاستعارهما أو سرقهما .. وسرعان ما كان
يخرج من العنبر مترجاً ..
تمنى ألا يقابله أحد .. لا من الممرضات ولا من القادمين ليلاً .. لحسن حظه إنها الرابعة بعد
منتصف الليل حيث يغط الجميع في النوم ..
راح يتحسس طريقه عبر ممرات كئيبة المنظر (كافكاوية) الطابع، تتواري منه القطط
المتسللة، وتتغنى الجدران بصوت خطواته ..
هناك درج نزل فيه .. وهناك ممر طويل مظلم له رائحة المطهرات الخائفة ..
ثم هناك حديقة واسعة غير معننى بها تغني فيها صراير الحقل .. هناك بوابة حديدية
ورجلاً أمين نائمان يلتفان بالأعطية .. هما لن يفيقا إلا لدى سماع صوت سيارة الإسعاف ..
لا يمكن أن يفيقا لسماع قدميه ..
وأخيراً .. في هذه الساعة المبكرة من صباح الغد - وجد نفسه في الشارع ...
ربما شعر بتحسن وربما لم يشعر ..
لكن كانت تنتظره مشكلة عويصة هي مشكلة البحث عن مأوى ..

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع...

ظلام الدرج ..

صوت الخطوات ورائحة عطن .. تلك القمط السوداء الكريهة تتواثب هنا وهناك وقد منعها القادم الجديد من الانتهاء من أحشاء الدجاجة الذي ألقاه أحدهم

صبراً ولا تتعجل .. إن هذا الدرج ينذر بكارثة، ولو تعثرت في هذا الظلام لكسرت جمجمتك ..
قطعة تكرة أن تتخلي عن الشلو الذي تلتهمه، فترجع أذنيها للوراء كما تفعل المقاتلات الحديثة بجناحيها طلباً للسرعة، ويتحول وجهها إلى وجه عفريت، وتصدر ذلك الفحيح الثعباني الطويل المنذر بالويل .. قطعة أخرى تصدر ذلك الصوت الطويل المولول الذي يصفه العامة بالـ (تعويص) ...

أحياناً يخيل إليه أن النسبة الكبرى من تعداد القاهرة هي من القمط الضالة .. هو لم ير أكثر منها منذ عاد لعالمنا بعد ذلك الحادث

الآن عليه أن يجد المفتاح

يجب أن نقول إن فقدان ذاكرته لم يكن كاملاً.. ثمة رؤى تظهر وتلاشى كأنها البرق يضيء الدغل ثم يتوارى .. وكان ضمن ما رآه ذلك الشارع .. ذلك الزقاق .. هذه الدرجات .. هذا الباب الذي يعرف يقيناً أن مفتاحه قريب ..

لو كان يحمله معه عندما وقع الحادث فمن المؤكد أنه فقده ..من الواضح أن جيوبه كانت خاوية تماماً وإلا لوجد رجال النيابة معه بطاقة هوية .. أي نوع من الهوية ..
المفتاح قريب لكن أين ؟

كان الآن يقف وحده في سطح مظلم .. هناك غسيل معلق على حبل .. غسيل لا يوحى بالثراء وهناك كومة من أكياس القمامة المهلهلة التي عشت بها القمط عيشاً.. أمامه الباب الخشبي الذي تم طلاؤه بطلاء رخيص، والذي لا يوحى بأية جودة في الصنع .. ربما لو دفعه بكتفه لتنهشم .. لكنه يخشى أن يفعل .. ربما كانت رؤاه خاطئة بعد كل شيء ..ربما لم يكن يسكن هنا..

المفتاح !.. المفتاح !

هناك مفتاح .. لكن أين هو ؟

اتجه إلى سور السطح وراح يمرر أنامله على القرميد المتآكل.. ثمة ضوء خافت في ذاته يخبره أنه على الطريق الصحيح .. شخص ما في مكان ما فعل هذا الشيء أكثر من مرة ..
الشعور الغامض يخبره بأنه هو ذات الشخص ...

أه !.. هاهو ذا !.. يده تصطدم بالجسم المعدني ..

يخرجها ليجد أن هذا هو المفتاح .. ويغدر ما سره أنه وجد الحل لقضاء ليلته، بغدر ما أسعده معرفة أن الفيلم الموجود في جمجمته لم يحترق بالكامل .. ما زالت هناك مشاهد كاملة سليمة ..

يدير المفتاح في القفل...

يدخل ...

أي وكر قذر هذا !

صحيح أن مشهد البناية والدرج لا يوحيان بأنه يدخل فندقاً خماسي النجوم، لكنه توقع ان تكون الأمور أفضل بالداخل .. الواقع أن الداخل كان يعبر بدقة عن الخارج ولا يوجد أي تناقض

ثمّة مصباح كهربى صغير معلق من السقف بضوء بمفتاح في نفس السلك .. ضغط عليه فانطلق ضوء خافت كئيب يغمّر الغرفة الضيقة ..

هناك فراش بلا (ملة) تقريباً .. عليه أغطية متسخة فقيرة، وهناك منضدة يبدو أنها تصلح لكل شيء ..

منضدة طعام ومكتب وكومودو (بوفيه) ومسند أقدام وسلم لتبديل المصباح .. الأرض مكسوة بقطعة من (الموهير) الرخيص الذي له ألف لون ..

ثمّة جهاز مذياع عتيق من الطراز الذي يربطون حجارته الجافة إليه بالحبال .. وهناك جرائد مفتوحة يبدو أن طعاماً كان يوضع فيها ..

لكنه لم يبال بهذه التفاصيل .. صحيح أنه تمنى لو كانت حياته أكثر يسراً إلا أن مشكلته الآن كانت تفتيش هذه الغرفة بعناية .. لو كانت تخصه فهي بالتأكيد تحوي بعض أسرارها ...

تحت الحشية وجد بعض المال .. إن خمسين جنيهاً في ذلك الزمن لا تقل أهمية عن خمسمائة جنيه اليوم .. ربما تتجاوزها .. هذا كشف مهم ..

لا توجد أوراق هوية .. هناك صورة فوتوغرافية باهتة معلقة على الجدار بلا إطار .. هو لم ير وجهه لكنه لم يفقد تلك الحاسة التي تطلق عليها (معرفه الذات) أو (التماهي) .. لهذا لديه فكرة لا بأس بها عن ملامحه .. هذه صورته منذ أعوام لا شك في هذا .

هناك كتابان ... الأول يتكلم عن (دولة المماليك البحرية) والآخر يتكلم عن (النظرية النسبية) .. ما معنى هذا ؟ .. ما الخيط الجامع بين الاثنين وما هي اهتماماته بالضبط ؟ .. هل هو عالم ذرى من المماليك ؟ .. أم هو معلم تاريخ يهتم بالعلوم ؟ .. أم .. ؟ .. ما عمله ؟ .. هل هو متزوج ؟ .. هل هو فرد من أسرة .. واضح تماماً أن هذا مسكن رجل واحد .. ربما نصف رجل لو أمكن ...

انتهى التفتيش فلم يجد شيئاً وقدّر أنه قد يعرف أكثر في الصباح .. سوف يظهر الجيران ويهتف أحدهم: (سمير) .. أين كنت ؟ ... أو تهتف واحدة: قلقنا عليك يا (منصور) .. أو يدق الباب محصل الكهرباء حاملاً إيصالاً للسيد (محمد المنياوي) أو السيد (سامح مكرم) .. المهم أنه سيعرف كل شيء في الصباح ..

كم الساعة الآن ؟ .. لا يعرف .. كان يعرفها بدقة في المستشفى من مواعيد توزيع الدواء .. أما الآن فهو يعرف فقط أنه في وقت ما بين الرابعة صباحاً والنهار الصريح ...

عليه أن ينام .. وغداً يوم آخر

هناك منامة واضح أنها تخصه .. هكذا استبدل بشيابه الغارقة بالدم وآثار الحادث ثياب النوم، ولم يدر متى ولا كيف نام ..

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع.. وحين يهلك آخر شعاع ضوء..

في الصباح سمع قرعات على الباب ..

لعل هذا هو ما ينتظره بالضبط .. اتجه للباب وفتحه وهو مبيل الأفكار ..

فتاة حسناء .. هو رأسها حسناء .. ليست من أرقى طبقة ممكنة ولعلها تنتمي بالفعل لهذا

المكان .. كانت تحمل صحيفة عليها بعض الطعام .. طبق فول وبضعة أرغفة من الخبز ..

بعض أقراص الغلافل ..

ضحكت في بشاشة حين رآته .. سمراء من الطراز الذي يسمونه (مليحة) ..

- - إفطارك يا (بدر) .. أين كنت أمس؟ -

ونظرت حولها لتتأكد من أحداً لا يراها .. إذن أنت (بدر) .. هذا جميل .. وليتك تقدر على انتزاع

معلومات أخرى ..

تناول منها الصحيفة وقال مرتبكاً:

- - كنت مع صديق .. شكراً.. -

- - هل زرت (فهامي السلاموني) ؟.. ذلك المحامي في (السبتية) ؟.. توقعت هذا .. -

ونظرت للوراء وهمست:

- - سنتظهر أُمي في أية لحظة .. لن أطيل الحديث ! -

ثم وقفت ترمقه وهو يضع الصحيفة على المنضدة .. إعجاب لا يخفى على أحد في عينيها ..

إنها تحبه بجنون .. والأهم أنه يشعر بفخر لهذا ..

من الواضح أن هذا الإفطار مهرب دون علم ذويها .. ساكن السطح العزب الذي تعنى به

جارة شابة لأنها تحبه .. لم ينس الأفلام العربية على كل حال ..

قالت له وهي تواصل التلفت:

- - بالهناء والشفاء .. أتمنى أن يأتي اليوم الذي أكف فيه عن التسلل .. أتمنى أن أصرح

أُمي بالحقيقة .. -

ثم استندارت وهي تلقي كلمتها الأخيرة:

- - سأقول لها بوضوح إنك زوجي أمام الله ورسوله .. لا أحد يجرؤ على الاعتراض ! -

جلس يعبث في طبق الفول عبثاً كأنه يعبث في أفكاره ذاتها .. لم يلاحظ أن ربع ساعة مر

وهو مستمر في تقليب الفول بالزيت دون أن يرفع اللقمة لغمه ..

إذن هو متزوج .. !.. والأهم أنه متزوج سرّاً .. !.. ولكن لماذا ؟..

لو استطاع للحق بها وحكى كل شيء .. ثم يسألها السؤال الأهم: من أنا بالتحديد ؟..

لكنها لن تصدق .. ستصاب بالهلع ولن تعطيه معلومة واحدة كاملة ..

أخيراً رفع اللقمة إلى فمه وازدرد ما بها .. طعم الفول سيئ فعلاً .. لا يعرف السبب لكن

هذه الفتاة ليست أفضل طاهية في الكون .. هذا لو كان هذا الفول يطهى ..

كان هناك موقد صغير في الحجرة من الطراز الذي يعمل بالكيروسين، لذا بحث حتى وجد

عود ثقاب، وأشعل الموقد .. ملأ براد الشاي وأعد لنفسه بعضه .. حتى الشاي سيء

المذاق لا يروق له .. لكنه أفضل من الطعام على كل حال ..

ارتدى الثياب التي وجدها هناك .. ثم نزل من دارة ..

فقدان ذاكرة غريب النوع هذا الذي يمر به .. إنه يذكر أرقام الحافلات ويعرف بالضبط كيف

يصل إلى وجهته .. فقط هناك بقعة سوداء تحيط بكل ما يخص كينونته ..

سوف يذهب إلى (السبتية) .. إلى ذلك المحامي الذي عرف اسمه .. لن يكون الأمر صعباً ..

هناك يعرف المزيد عن ذاته ..

كان يعبر الشارع الذي هو أقرب إلى زقاق ضيق .. تنتثر فيه ورش الحرفيين، ويلعب فيه

الصبية بكرة ممزقة.. لقد ابتعد عن البيت كثيراً...

هنا سيمع من يستوقفه صائحاً:

- - (كمال) ..

التفت للوراء ليرى شاباً في العقد الثالث من العمر له ذقن نصف نامية ومظهر فظ يوحي بأنه من معتادي المتاعب ..

الشاب يواصل الكلام:

- حددت لي موعداً خلف المدرسة القديمة وقلت إن الشيء معك .. ذهبت هناك وانتظرتك ساعة أو أكثر ثم قررت أنك تتلاعب بي .. إنه ليس معك .. أليس كذلك ؟ -
بم يرد ؟ ... طبعاً الشيء - يعلم الله ما هو - ليس معه .. لكن هل يغفل من هذه المحادثة ؟
قال بصوت مبحوح:

- نعم ليس معي .. لكني سأرتب لك الموضوع .. الليلة .. ربما .. -

قال الشاب وعينه تنذران بالخطر:

- أنت تعرفني .. لا أحد يخدعني .. لماذا حاولت أن تتلاعب بي ؟ -

- لم أتلاعب .. ظننت أنني قادر على تدبيره .. أنت تعرف هذه الأمور .. -

نظر له الشاب بريبة وقال وهو يعتصر ذراعه:

- ما بك ؟ .. لا تبدو (على بعضك) اليوم .. هل أنت مريض ؟ -

- ربما .. ربما .. -

هز الشاب رأسه وقال وهو يتأهب للرحيل:

- (كمال) .. أنت تعرف أنني لا امزح ولا أحد يلعب بي .. قليلون حاولوا ولم يحدوا الوقت

الكافي للندم .. -

- سأذكر هذا .. -

وانصرف الشاب بينما عاد هو إلى حالة انعدام الوزن التي مر بها من قبل .. (كمال) أم (بدر) ؟ .. متزوج ويلتقي رجالاً مريبين ليلاً ليعطيهم (أشياء) .. لا تحتاج إلى خيال خصب كي تقدر أن هذه الأشياء ضد القانون .. مخدرات على الأرجح ... من هو بالضبط ؟
واضح أنه لغز حقيقي .. يقول (إيليا أبو ماضي) في (الطلاسم):

أنا لغز .. ومجيبتي كذهابي طلسم

هو لا يعرف بيت الشعر لكنه يعبر عن حاله بدقة ..

هكذا اتجه إلى (السبتية) قاصداً مكتب المحامي ...

- أستاذ (محمود) ؟ .. إن الأستاذ يسأل عنك منذ الصباح ! -

قالها لها كاتب المحامي العجوز الجالس خلف المكتب المتداعي المغطى بالملفات ..

وأردف الرجل وهو ينهض متجهاً إلى دهليز ضيق في المكتب:

- سوف يكون معك حالاً .. قهوة أم شاي ؟ -

غمغم صاحبنا بكلمات من طراز (قهاي) أو (شاهوة) .. لم يسمعها الرجل على الأرجح ..

ماذا يدور هنا ؟ .. من أنت بالضبط ؟

كان في أسوأ حال ممكن حين جاء المشروب الذي اتضح أنه (قهاي) فعلاً من مذاقه ..

وحتى استدعي لمقابلة المحامي (فهمي السلاموني) ..

قال له الأستاذ وهو رجل ممتلئ في منتصف العمر له صلعة لامعة:

- الإجراءات تسير جيداً .. ما لم يتدخل (خابر) بالعبوة أخرى .. أحياناً أحس أن الأمر لعبة

شطرنج معقدة بين عقلي محاميين بارعين .. وأرى أن عليك دفع جزء آخر من الأتعاب الآن ! -

فكر قليلاً في شيء يقال .. ثم غمغم في شروء:

- جميل .. جميل .. لكن ليس معي مال حالاً .. -

- لقد انتهينا لتونا من بيع الفدان .. فلا تقل إنك أنفقت المبلغ كله .. -

فكر بعض الحين .. فدان .. إذن لماذا يعيش في ذلك البيت الحقير ؟ .. هل لهذا الفدان علاقة

بـ (خابر) ؟

لعبة شطرنج معقدة بين محاميين ؟ ... إنه موشك على الاختناق ..

قال بصعوبة:

- الحقيقة أنني مرتبك ولا أعرف كيف أبدأ .. أريد مهلة أخرى .. -

قال المحامي نافذ الصبر:

- يجب أن تسرع قليلاً .. إن مدام (عزة) تلعب لعبتها بسرعة .. هي لا تقضي أياماً في

التفكير مثلك .. ولا تغيب عشرة أيام عن محاميتها كما تفعل أنت معي .. -

ثم ضيق عينيه ونظر إليه في خطورة وقال ضاعطاً على كلماته:
-هم لا يمزحون .. يعرفون جيداً ما يريدون ويحققونه ...أما أنت فتتأرجح بين الحزم والوداعة .. بين البلاهة والخبث .. بين الإقدام والتردد ..
ثم كوم أوراقه فوق بعضها وقال:
-أرى أن تتصل بي غداً على أقصى تقدير .. سأوجه لهم ضربة قانونية شديدة الإيلام فقط لو شعرت بأنك تعضدني .. لن اتصرف وحدي كما تعلم ..
كان في هذا إيذاناً بانتهاء المحادثة ..
ونهض مترنجاً واتجه إلى الباب
هز رأسه محبباً الكاتب وبدأ بهبط في الدرج .. الشارع من حديد
يريد أن ينفرد بنفسه .. يريد أن يعرف معنى هذا الذي يسمعه ..يرمق الناس في شروء ..
-بس بس بس !! (محمود) !-
نظر وراه بحثاً عن صاحبة الصوت فلم ير أحداً ثم أدرك أن الصوت يخرج من سيارة (فيات) زرقاء تقف بقرية .. ثمة امرأة .. امرأة تطل برأسها من نافذة السائق وعلى عينيها نظارة سوداء تتظاهر عن طريقها بغموض وأرستقراطية .. ليس بسيارة كهذه يا سيدتي ..

وشعر برضا شديد لأن هذه المرة الأولى التي يسمح فيها الاسم ذاته مرتين .. هذا يدعم حبه (محمود) كثيراً .. هكذا ترجح كفة (محمود) على كفة (بدر -كمال) ...
عبر الطريق في حذر .. وانحنى جوار النافذة ..
امرأة في الثلاثين .. تتظاهر بأنها شقراء وبأنها راقية وثرية ..
قالت له من وراء العوينات السوداء:
-هل ثمة ما يشغلك ؟.. اركب .. توقعت أن أقابلك في مكتب المحامي أو قرية ..
دار وفتح الباب الأيمن .. وجلس في تحاذل وإنهاك .. وشم رائحة عطر خانقة .. عامة من اللحظة الأولى أعطته المرأة انطباعاً من الافتعال والادعاء لم يحبه .. أما هي فانطلقت بالسيارة عبر الشوارع المزدهمة وكانت قيادتها جيدة إلى حد ما .. لاحظ أنه في ذلك الزمن كان من العسير .. أو المستحيل .. أن ترى امرأة تقود سيارة ..
قالت له بعد صمت طال:
- (محمود) .. أعرف أنك غاضب .. لكنني أعرف كذلك أنني سامحتك -
ثم مدت يدها تضبط امرأة الرؤية الخلفية وقالت:
-أنت تعرف أننا زوجان متحابان .. ولن نفرقنا هذه الألعاب القانونية !-

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع.. وحين يهلك آخر شعاع ضوء.. عندئذ ترتج الردهات بصوت خطواته ..

الظلام يبدو أكثر كآبة حين تواجهه وحدك في غرفة خافتة الإضاءة على سطح بيت متداع ..

هو يجلس ويرمي المصباح المتدلي من أعلى .. ويفكر ..
المشكلة هي أن عقله مبليد لا يقدر على التفكير الممنطق المرتب فلا يخطر بباله أن يرتب الاحتمالات على الورق أو يصل بين هذه المعطيات ..
قال الأطباء إن الارتجاج سيشفى .. وسوف تعود ذاكرته .. لا يبدو أن هذا يحدث .. بل إن الأمور تزداد جهامة وتعقيداً .. في كل لحظة يكتشف من حياته جانباً لم يعرفه من قبل فلو اتضح أنه بطير أو أنه زعيم لوردات المخدرات في (كولومبيا) أو قابله رجل من المخابرات السوفيتية ليسأله عن شحنة (البلوتونيوم) فلن يندهش كثيراً ..
- أنا زوجتك .. لن تنسى هذا ببساطة .. أعرف أنها مغامرة تورطت فيها بسبب تهورك لكني أعرف كذلك أننا قادران على نسيانها ..
قالت لها وهي تقود السيارة وهو صامت كالقبر ..
قالت له كذلك:

- لن اطلب منك رداً الآن .. سوف انتظر حتى الغد ..
ثم تذكرت شيئاً فأخرجت ورقة من حقيبتها بيدها اليمنى بينما عينها على الطريق وبيدها اليسرى على المقود:
- هذا هو رقم هاتفي الجديد .. أنت لا تعرفه فقد تغير .. أطلبني في أي وقت وأبلغني قرارك-

هذا جميل .. كان يرغب في إبقاء همزة الوصل لكنه يخشى أن يسألها .. المفترض أنه يعرف كل شيء عنها ..
ثم استدارت لترمقه بنظرة جانبية طويلة من خلف العيونات السوداء وقالت:
- أنت لا ترى نفسك .. لقد صرت في حال مروعة مثيرة للشفقة .. يا لياقة قميصك !! منذ متى لم تستبدل ثيابك ؟ .. هل خلقت لحيثك منذ ثلاثة أيام ؟ ... تبدو لي كالمجاهدين فلا ينقصك إلا أن تحمل مبخرة وتحول على المحلات تستجدي أصحابها ..-

ثم توقفت على يمين الطريق وبدأ أنها تنتظر ..
نظر لها في غباء فقالت بلهجة نافذة الصبر:
- - الجريدة .. إنها عند المنعطف التالي ولن أستطيع دخول الشارع المزدهم .. حسبتك
ذهاباً إلى هناك ..
قال بلهجة من اكتشف شيئاً مهماً:
- - نعم .. نعم .. شكراً .. كدت أنسى ..
وما لم يقله لها هو إنها أبعدته كثيراً جداً عن الدار التي يعيش فيها فعلت هذا تطوعاً ودون
أن يطلبه منها .. وهو - بالطبع - لا يملك أدنى فكرة عن كنه هذه الجريدة ..
هناك جريدة هنا يعمل فيها (محمود) أو له علاقة بها .. سيتذكر هذا ..
هو الآن في غرفته يفكر في ربط كل شيء من جديد .. لكنه يتوقف ..
هو يعرف يقيناً أن الباب مغلق فلماذا هو مفتوح الآن؟
من صاحب الظل الذي يقف هناك؟ .. لقد تذكر! .. إنه هو .. لقد وحده كالعادة .. هو إذن ليس
مرتبطاً بالمستشفى ..
يقترب القادم أكثر .. أكثر ..
لكنه ما زال مغموراً في الظلال ..
بصوت غريب كأنما هو هلوسة سمعية لا وجود لها يقول:
- - أنت لي .. لا تنس هذا .. أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفتر ..
ثم يتراجع الظل للوراء وهو يردد:
- - لا أحد .. لا أحد ..
بعد دقيقة توارى تماماً ..
هذه المرة لم يبال بالخلل .. لم يبال بأسئلة غريبة توجه له لأنه ما من أحد يوجه له
أسئلة كهذه ..
لقد غطى وجهه وراح يصرخ ..
يصرخ

لم بعد النوم ممكناً ..
هكذا حكى لي فيما بعد لذا قرر أن يفتح المذياع العتيق ويصغي إلى أي شيء ينسبه
هو أحسه ..
حينما فتح المذياع سمع صوت رجل على شيء من الوقار - كذا قال - يتكلم مع مذياع شاب
متحمس .. يبدو أنه برنامج إذاعي ليلي ويبدو أن فكرته قائمة على تلقي مكالمات
المستمعين .. لكن الغرض هو سماع قصة مرعبة يحاول هذا الرجل الوقور أن يدلي بدلوه
فيها ..
سمع المذياع يقول:
- - د. (رفعت إسماعيل) .. أستاذ أمراض الدم بكلية الطب جامعة هو ضيفنا الدائم هنا
ونحن جميعاً نعرف خبراته في مجال ما وراء الطبيعة ..
والرجل يقول:
- - لا أعنفد أن أحداً يملك إجابات حول هذا الموضوع .. أنا فقط سمعت أسئلة أكثر من
غيري ..
هذا الصوت! .. إنه يعرفه بالتأكيد .. والاسم! ..
- - أنا أدعى (رفعت إسماعيل) .. طلبوني كي أعنى بفقر الدم الذي تعانيه .. هل تذكر ما
حدث؟
يا لها من مصادفة! .. هذا الرجل كان طبيبه في المستشفى .. والآن يتضح أن له خلفية عن
أسرار عالم ما وراء الطبيعة .. لا توجد خيارات كثيرة .. لابد من أن يتصل بهذا الرجل غداً ..
أين يجده؟ .. الأمر سهل .. أستاذ أمراض دم بكلية طب (...) .. وهو يعمل في ذات
المستشفى الذي كان فيه ..
سيجده غداً .. هذا أكيد ..

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع.. وحين يهلك آخر شعاع ضوء.. عندئذ ترتج الردهات بصوت خطواته .. إنه قادم نحوك أنت ..

- د. (رفعت إسماعيل) ؟-

بالفعل لم يجد عسراً في العثور على مكتبي .. بل إنه ذهب إلى قسم الطوارئ ليسأل برغم أنه - من الناحية القانونية - يعتبر فاراً من المستشفى .. لكن ما عرفه على الفور هو أنه لا أحد يلاحظ أي شيء في هذا المكان .. ولا أحد يذكر أي واحد آخر .. رفعت عيني وبدا لي الوجه مألوفاً... هاتان العينان وهذه الملامح الذكية .. ابتسم وقال:

- لا بد أنك تذكرني .. المريض الذي قمت بمناظرته من يومين ..-

هنا تذكرته على الفور ودعوته للجلوس .. طبعاً لم يتصل بي أحد ولم يبلغني بتقارير المختبر .. هذا متوقع فليس علي إلا أن ابحت عن النتائج بنفسي لو كنت متحمساً إلى هذا الحد ...

- هل تذكرت اسمك ؟-

- تذكرته .. - وابتسم بغموض - ربما أكثر من اللازم ..-

لم أفهم هذا الجزء لكنني قدرت أنه سيفسر أكثر .. عاد يسألني في شك:

- هل أنت صاحب البرنامج الإذاعي الذي ؟-

- نعم ، أنا هو .. وقد بدأت أفهم أن استشارتك لي لن تكون طيبة ..-

- هي خليط من كل شيء ...-

وجلس وحكي لي ما عرفتموه أنتم من قبل .. سأترككم قليلاً حتى اسمع دون تدخل منكم حتى لا أكون انطباعاً مسبقة .. أفضل أن أسمع القصة من فمه هو ..

لما انتهى من قصته ثأبت .. لا عن ملل ولكن عن إحباط ..

لا أملك له حلولاً جاهزة على الإطلاق ..

قلت له:

- هناك مشكلتان في حياتك .. أولاً من أنت وماذا تعمل بالضبط وكيف وجدت نفسك في الانفجار ؟.. ثانياً من هو ذلك القادم ليلاً ؟-

ثم أمسكت بورقة ورجت أخط عليها بعض المعلومات:

- لنكن منطقيين .. أعتقد أن القصة كما يلي: أنت صحفي يدعى (محمود) ... متزوج ممن

تدعى (عزة) .. ربما موسر كذلك لأن لديك فدادين تبعها .. لا بد أنك قمت بإحدى المغامرات

التي يقوم بها الصحفيون .. انتحلت اسماً مزيفاً هو (بدر) وأقمت في حي شعبي وتورطت

مع أشخاص مريبين .. أعتقد كذلك أنك تورطت في الزواج من تلك السمراء الحسناء ..

قررت أن تحصل على الطلاق أو شيء من هذا القبيل عن طريق (فهمي) المحامي .. بينما

زوجتك الأولى وكلت من يدعى (جابر) .. ثم .. يوم !.. يحدث الانفجار الذي لا نعرف شيئاً عن

سببه .. وجدت نفسك في هذا الوضع تحاول تذكر من أنت حقاً..-

نظر إلى قدح القهوة الذي طلبته له .. أعتقد أن قهوتنا لم ترق له لأنه لم يمسه .. فكر قليلاً

ولم يبد راضياً .. وقال وهو يحك ذقنه:

- قصة معقدة أكثر من اللازم .. مصادفات عديدة .. ثم لماذا ناداني ذلك المشبوه باسم

(كمال) ؟.. المفترض أن سكان الحي عرفوني باسم (بدر) ..-

كومت الورقة وألقيتها في القمامة وقلت مغتاضاً:

- هذا هو ما استطعت استنتاجه .. لو كنت تبحث عن قصة متناسقة درامياً فعليك

بالذهاب إلى (نجيب محفوظ) أو (محمود تيمور) -

عاد يتساءل:

- ومن هو القادم ليلاً ؟-

- أعتقد أنك في حالة تسمح بالهلاوس السمعية والبصرية .. لاحظ أنه لم يمسسك بضر .. هكذا تفعل الهلاوس..-

بدأت عليه خيبة أمل لا شك فيها .. هذه مشكلتي الدائمة: كطبيب يتوقعون أن أرى المريض فأصيح: هذه حالة من ذاء (جلتسمر هركليان) بلا شك .. وعلاجها كذا وكذا ... وكخبير ميثافيزيقي يتوقعون أن أصيح: هذه لعنة إزتيكية قديمة أعرفها .. وطريقة علاجها هي كذا وكذا

المشكلة هي أنني أكثر ذكاء مما يوحي به مظهري، لكنني أقل ذكاء مما توحي به كلماتي ...

قال لي:

- وماذا ترى أن أفعله الآن ؟-

- نفس ما فعلته أمس .. ابق حياً وقطعة واحدة .. أعذك أنني سأواصل البحث.. فقط أعتقد أنه من الحكمة أن تخبر زوجتك الأولى (عزة) بما حدث لك .. هذا سيوفر لك الكثير .. ربما هي تعرف أكثر عن سبب تواجدك هناك-

أعطيته رقم هاتف بيتي وعنواني في حالة ما إذا احتاج إلى شيء .. وبعد انصرافه بقليل أدت قرص الهاتف ..

طلبت قسم الطوارئ طالباً نتائج الاختبارات التي أجروها عليه حين كان في المستشفى .. بدأ الضيق على الطبيب الشاب، فقد أغلق هذا الملف ومن المستحيل أن يجد ما أريد وسط كل هذه الأوراق .. لكنه كان يعرف أنني قادر على الحصول على ما أريد عن طريق الاتصال برؤسائه..

أما الشيء الثاني فهو أنني فتحت الدرج الذي أنخلص فيه من الصحف .. عامة ألقى بالصحف فيه حتى يصير غير قابل للغلق، عندئذ أحمل معي كومة منها لأنها تصلح دوماً للف الخبر فيها ..

أرجو أن تكون الحريدة موجودة .. ها هي ذي .. حمداً لله .. فتحت صفحة الحوادث وراحت عيني تطالعان الخبر بدقة أكثر ...

انفجار أنبوب غاز يقتل خمسة شبان

كتب (.....): فقد خمسة شبان حياتهم إثر انفجار أسطوانة غاز في (...). وقع الحادث في منتصف الليل حيث أبلغ الجيران عن سماعهم صوت انفجار من مخزن مهجوراً كان يستعمل كمعمل للتخليل، وقد انتقل إلى مكان الحادث رجال الشرطة ورجال المطافئ، حيث تبين أن الانفجار قد دمر المخزن تماماً وعثر على خمس جثث لشبان في العشرينات من عمرهم، كما وجد شخصاً واحداً سليماً، ولم يستطع رجال النيابة استجوابه لأن حالته لا تسمح، إلا أن المعاينة المبدئية ترجح انفجار أنبوب غاز في المخزن، وتواصل النيابة التحري عن سبب إحضار الشبان أنبوب غاز معهم في هذا المخزن، والكيفية التي انفجرت بها.

بصرف النظر عن نصب نائب الفاعل (شخصاً) وبالتالي صفاته، ونصب صفة مكسورة (مهجوراً)، فهذا شيء يمارسه الجميع .. ويبدو أن الناس جميعاً يعتقدون أن نصب الكلمات يجعلها تبدو أدق نحويًا..

هذا هو كل شيء وهو لا يختلف كثيراً عما قاله الفتى، لكن هناك شيئاً مهماً هو أنه لا يعرف أي شيء عن سبب تواجده ورفاقه هناك.

قمت بطلب رقم على الهاتف .. بعد قليل جاء صوت صديقي د.(عبد الغفار) .. وهو من الأشخاص الذين أتصل بهم مرة كل عامين لأحل مصلحة ما .. علاقة بسيطة جداً قوامها المنفعة من طرف واحد ..

- (رفعت) أيتها العجوز .. لم تمت بعد-

- طبعاً وإلا لوجدت جثتي عنديكم ..-

أنتم تعرفون أن د. (عبد الغفار) يشغل منصباً مهماً في الطب الشرعي .. هذا يجعله لا يتكلم على راحته لأن هذه أسرار عمل، لكنني بالفعل كنت أريد معرفة تفاصيل أكثر عن الحادث ..

قال لي في تحفظ:

- هذا كلام لا يقال عبر الهاتف .. لماذا لا تأتي لي في المصلحة لنواصل الكلام ؟.. لكن

دعني أخبرك بشيئين: أنت لن تطلع على جثث ولن ترى ملفات .. اتفقنا ؟-

- هذا مفهوم ..-

- هناك لغز حقيقي يحيط بهذه القضية، وهذا سبب عدم تسلم أهل الضحايا جثث ذويهم ..

ثم قال وهو يضع السماعة:

- لن أقول أكثر .. لكنني فعلاً بحاجة إلى رأيك-

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع.. وحين يهلك آخر شعاع ضوء..عندئذ ترتج الردهات بصوت خطواته ..

فرغت من شرب القهوة التي طلبها لي د. (عبد الغفار).. كان رجلاً رسمياً جداً غارقاً في عالم الأحراز والشمع الأحمر والمطاريف الحكومية الصفراء الكثيرة .. مهنته تجعله أقرب إلى وكيل النيابة منه إلى الطبيب..

قال لي وهو يتفحص أحد الملفات:

- هناك خمس جثث في مكان الانفجار .. الصفة التشريحية هي هل تريد التفاصيل ؟-

قلت في تهذيب:

- لو كانت لا تتمشى مع حدوث انفجار ..-

- لا .. كلها تتفق مع الانفجار.. الشباب كلهم في سن متقاربة ومعهم أوراق هوية وقد تعرفناهم جميعاً.. يبدو أن رجال الشرطة يحاصرون ذويهم بالأسئلة .. أرحح النظريات هي أنهم كانوا يعيشون أو يجربون تجربة غامضة ما، لكن أسطوانة الغاز انفجرت فيهم ..

أسطوانات الغاز هذه الأيام لا تفعل شيئاً سوى الانفجار.. إنها طوربيدات لو أردت رأيي ..-

ثم أشار لي بقلمه وقال:

- ذلك الفتى الذي كان في مستشفىكم والذي هرب، كان يشكل نقطة مهمة جداً.. أعتقد

أنه كان يملك إجابات لكنكم تركتموه يفر من أيديكم ..-

- إن الإهمال يحدث ..-

وابتلعت ربقي .. من الآن بدأت اشعر بالمسئولية القانونية الجسيمة التي يشكلها

صمتي .. أنا لا أعرف مسكن هذا الفتى، لكن من الممكن جداً أن أبلغ الشرطة بكل ما

قال .. هم سيحدونه .. هناك (فهمني السلاموني) المحامي وهو اسم لم أنسه ويصلح

نقطة للبدء .. لكن - من جهة أخرى - هل من حقي أن أفصح ما قاله لي ؟.. لست محامياً

ولا طبيباً - بمعنى أنه سألني بصفتي الطبية - ولا قس اعترافات .. لا يوجد ما يمنعني من

إبلاغ ما قاله للشرطة، وهذه نقطة يمكن أن توجه ضدي في ساحة أية محكمة فيما بعد ..

على كل حال قررت أن أصغي لد. (رمزي) تاركاً هذه التساؤلات الأخلاقية لما بعد ..
قال لي:

- لقد تمزقت الجثث .. هناك أشلاء ... لكننا تمكنا من جمعها .. تصور أنك تجمع قطع لغز
من ألغاز الأطفال التي بسمونها Jigsaw .. انتهيت من جمع الصور كلها .. لكن هناك أجزاء
رائدة لا تعرف ما تفعل بها !-

تصلبت في جلستي ونظرت له غير فاهم .. قال:

- نعم .. هو ما سمعته .. هناك بقايا شخص سابع .. بقايا ممزقة .. بقايا لا يمكن أن يكون
الانفجار قد سببها .. هل تريد أكثر ؟ .. هناك بقايا من كتاب محترق بالإنجليزية يتحدث عن
سحر القرون الوسطى .. هناك بعض الرموز الدينية وحدثها وسط الرماد .. -
اقشعر جلدي لهول الفكرة وعدت أسأله:

- بقايا لم يسببها الانفجار ؟-

ابتسم في توحش وقد أدرك أنه أثار اهتمامي:

- نعم .. بقايا من شخص تم تمزيقه قبل ذلك .. هؤلاء الفتية كانوا مجتمعين لممارسة
السحر الأسود أو طرد روح شريرة .. هذا هو التفسير الوحيد .. ثم أفلت منهم الأمر
وانفجرت أسطوانة الغاز .. -

ابتلعت الخبر مع ما بقي في قذح القهوة وسألته:

- وأهل هؤلاء الفتية ؟ .. لم يعرفوا شيئاً عن ذلك ؟-

- كلهم فتية طبيعون حديثو التخرج .. منهم المهندس والمحاسب والطبيب والمعلم .. وآخر
ما يهتمون به هو هذا الهراء .. إنهم أصدقاء حميمون منذ زمن .. لكن هناك واحداً اختفى من
هذه الشلة منذ أسابيع .. قبل الحادث .. هذا هو كل شيء .. -

رحت أفكر فيما قال باهتمام .. بعد قليل سألته:

- هذا الفتى المختفي .. كيف يبدو ؟-

- لا أعرف .. الشرطة تعرف بالتأكيد .. -

لو كان هو الفتى الذي جاء مكتبي لاتضح الأمر .. لا .. لن يتضح .. سوف يزداد تعقيداً ...
شكرته ونهضت معلناً رغبتني في الانصراف فقال لي ضاعطاً على كلماته:

- (رفعت) .. أنا قدرت صداقتنا .. لكن الصحافة لا تعرف حرفاً عن هذه التفاصيل .. ما قلته
لك سيظل سرّاً .. -

هزرت رأسي أن نعم .. لا بد أن يقول هذا ولا ألومه كثيراً ...

المزيد من علامات الاستفهام .. لماذا لا يستعيد ذلك المخبول ذاكرته بسرعة وينهي هذا
الغموض ؟ ..

- فقدان ذاكرة هستيري .. -

خطر لي هذا المصطلح .. لم يكن الانفجار هو سبب فقد الذاكرة بل هو فقد ذاكرته لأن ما
رآه مريع ..

هذا يحدث كثيراً جداً .. الشباب يرى مصرع صديقه تحت عجلات القطار فيفقد ذاكرته ..
المرأة تكتشف خيانة زوجها فتفقد ذاكرتها .. إن هذا هو خط الدفاع الذي يلجأ له المخ كي
لا يحزن ...

ماذا رآه ذلك الفتى حتى جعله ينسى تماماً من هو ؟

ربما استطعت أن أساعده في ذلك

بقترب القادم أكثر .. أكثر ..
لكنه ما زال مغموراً في الظلال ..
بصوت غريب كأنما هو هלוوسة سمعية لا وجود لها يقول:
- أنت لي .. لا تنس هذا .. أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر..-
ثم يتراجع الظل للوراء وهو يردد :
- لا أحد .. لا أحد ..-
بعد دقيقة توارى تماماً ..
وجلس الفتى في الفراش الرث ينظر إلى فرجة الباب حيث اختفى الظل ..
(رفعت) الأحمق قال إن هذه هلاوس سمعية وبصرية .. ليته كان هنا ليخبر ذلك القادم
برأيه ..
لكن هناك حقيقة مؤكدة: هو لن يتحمل أكثر من هذا .. المشكلة أنه لا فرار من ذلك .. لقد
وجده ذلك الزائر في المستشفى ووجده هنا .. فأين الفرار ؟..

في الصباح جاءت (مها) وانصرفت ..
(مها) هو اسم الفتاة المليحة التي يعرف الآن إنها زوجته .. بالطبع لم يكن على استعداد
للمس إصبع من أصابعها لأنه ببساطة لا يعرفها على الإطلاق .. وقد بدت اليوم
مندهشة .. لا بد أنه في حالته الطبيعية كان أكثر تحجراً حتى وإن كانت زيجتهما سرية ..
أما هذا التعامل الرسمي الذي يصلح لابنة الجيران فأمر لا تفهمه ..
على كل حال تركت له الإفطار وانصرفت .. أمس تركت له عشاء .. من الجلي أنها تهرب من
الوجبات الثلاث ما أمكن .. لا الوجبات كلها ..
آية حياة هذه ؟.. متزوج لكنه لا يجسر على لمس زوجته ويأكل ما تسرفه من مطبخ أمها
كأنه منسول .. وكيف تقبل الفتاة بوضع كهذا ؟
لا شك في أنها تهيم به حباً .. لكن آية خطط كان يرسمها قبل هذا ؟.. ما هي تصوراتها
للمستقبل ؟.. ما المشكلة في أن يعلن أنه متزوج من اثنتين .. ؟.. في هذا الوقت لم تكن
تعديلات قانون الأحوال الشخصية قد خرجت للوجود وهكذا كان بوسعه أن يتزوجها دون
أن تعرف زوجته الأولى بأي شيء .. فلماذا كل إجراءات المحاماة المعقدة إذن ؟
الحقيقة أنه كان يؤمن في كل لحظة بأنه لغز مبهم ..
على كل حال تبلغ بلقمتين ثم نزل ..
لا أثر لذلك الرجل الخطر الذي يدعوه (كمال) لحسن الحظ .. وخطر له أنه - على الأرجح - لا
يعرف بيته .. هذا منطقي وإلا لعرف أنه (بدر) ..

حملته قدماه والمواصلات إلى النقطة التي تركته عندها المرأة منذ يومين ...
قالت إن هناك جريدة .. وهو راغب بحق في أن يرى من فيها ..
دار حول المنعطف .. بحث بعينه عن مبنى عملاق يماثل مبنى (الأهرام) أو (أخبار اليوم) ..
لكن ظنه خاب .. لا توجد أية مبان عملاقة هنا .. الشارع مزدحم وهو يصطدم بالمارة لكنه
رفع عينيه لأعلى وراح ينظر إلى الشرفات .. هناك لافتة (نيون) متسخة كتب عليها (جريدة
الفلاح الفصيح) تبرز من شرفة في الطابق الثاني .. لا يوجد ما يدل على جريدة أخرى في
الشارع ..
محبط جداً هذا المدخل المتسخ الرطب .. هي إذن جريدة من التي تباع بالوزن لتجار
الورق .. ربما تتكسب من الإعلانات أو الإتاوات .. عنوانها يوحى بالانقباض والتشاؤم ..
دخل الباب المنخفض ليجد صالة استقبال .. غرفة استقبال .. (كشك) استقبال .. رائحة
الورق .. أكوام من الورق وحبير الطباعة وكومة من الصحف التي لا تباع بالواحدة ولكن
بالكيلوجرام ..
ثمة سكرتيرة شاحبة تجلس وأمامها كومة من شطائر الفول وهاتف وآلة كاتبة .. فلما رأيته
صاحت:
- كنا نبحث عنك يا أستاذ (عصام) !.. أين أنت ؟-
تماسك حتى لا يسقط أرضاً .. إن الأمر يزداد تعقيداً من لحظة لأخرى .. الحقيقة أنه يمقت
نفسه بجنون .. لماذا من بين البشر جميعاً اختار لنفسه هذه الشخصية الغامضة المعقدة ؟

قال لها كلاماً لا معنى له فقالت وكأنها تفهم:
 - - أعرف .. هو كذلك متضايق منك ..
 وأشارت بطرف خفي إلى غرفة داخلية وأضافت:
 - - قال إن كلمة واحدة لن تنشر لك طالما هو حي..
 يبدو أنه مشير للمتاعب كذلك ..
 ثم أضافت الفتاة وهي تبسم في حياء:
 - - أمس أخبرت أمي بقصتنا .. بما قلته لي .. وسوف تأتي قريباً لتلتفك !-
 يا للكارثة !..
 واضح أنه ألين زئير نساء على وجه الأرض .. يتمنى لو قابل فتاة واحدة لم يغازلها أو يطلب
 الزواج منها أو يبثها حبه ..
 قالت له برفقة:
 - - هل تريد أن تلتفاه ؟-
 من هو ؟.. طبعاً رئيس التحرير أو شيء من هذا القبيل ..
 المشكلة هنا أن كل من يعرف وجهاً آخر من وجوهه يعرف طرفاً عن الوجه الآخر .. الفتاة
 التي هي زوجته الثانية تعرف عن مكتب المحامي لكنها تناديه (بدر) بينما المحامي
 يناديه (محمود) .. زوجته القديمة (عزة) تعرف أنه يعمل في هذه الجريدة .. لكنه لا
 يستخدم الاسم ذاته .. بل تعرف مكتب المحامي .. الرجل المريب إياه قال إن اسمه
 (كمال) بينما من السهل أن يعرف أنه (بدر) ..

قال لها محاولاً ألا ينزلق في فخ ما:
 - - لا أرغب في لقاءه اليوم ..أ..... قول لي ..
 أصعب شيء في العالم أن تعرف من أنت دون أن يظن الناس بعقلك الظنون .. لهذا لا بد
 من انتقاء كلماتك بعناية .. وحيث ..
 - - متى كانت آخر مرة جئت فيها هنا ؟.. لقد نسيت ..
 بدت عليها الحسرة وقالت:
 - - كان هذا يوم أخبرتني بحبك .. إنه الأربعاء منذ ستة أيام .. كيف تنساه ؟-
 لا بد أنك قمت بإحدى المغامرات التي يقوم بها الصحفيون .. انتحلت اسماً مزيفاً هو
 (بدر) وأقمت في حي شعبي وتورطت مع أشخاص مريبين-

لم يرد وواصل الأسئلة:
 - - وذلك التحقيق الصحفي الذي أجريه .. هل أخذت نسخة منه ؟-
 بدا عليها الغباء وقالت:
 - - أنت تعرف أنك لم تجر تحقيقاً من أربعة أشهر ... هذا هو سبب الشجار بينكما .. لم يعد
 يسند لك عملاً جدياً .. أنا لا أعرف عم تتكلم ..-
 هذه نقطة واضحة إذن .. من الصعب أن يبدأ هذا التحقيق العجيب دون علم رئيس
 التحرير .. وعلى الأرجح دون علمها هي ...

هكذا قررت أن ازور هذا البيت المنكوب .. حصلت على العنوان من د. (عبد الغفار) الذي حصل عليه من رجال المباحث وقد أوصاني عدة مرات أن أتعامل بكياسة ولا أفشي ما يعتبر حتى اللحظة سراً من أسرار العمل .. قال لي في غل:
- سوف تقودني إلى خراب بيتي !! تباً لك !-
قلت له إنني لن أتكلم .. فقط سألعب دور زائر جاء يطمئن على أخبار ابنهم لأنه صديق ابنه ... كان يعرف أنني قد أكون أحمق أخرق سيئ الحظ متعنتاً غيباً سخيلاً عصبياً .. لكنني بعد هذا كله - شخص يمكن الثقة به !
هكذا ظلت صامتاً أتحمل أعنف أنواع التعذيب التي يمارسها علي هذا الأب المسكين .. كلما ردد كلمات الأمل في عودة ابنه ...
كان الفتى محاسناً لم يعمل بعد ... زهرة يانعة في مستقبل العمر امتلاً بالأحلام .. يقيم مع أسرته طبعاً لأنه لم يمتلك دخله الخاص بعد ..
اندمج الأب في الكلام عن ابنه .. ثم سألني بغتة:
- هل علاقة ابنك بابني حميمة ؟-
أه !... فلنشغل جهاز الكذب المثبت في داخلي .. ليعمل بأقصى طاقة فيه ..
- أعتقد هذا .. إن ابني خارج البلاد الآن .. و...-
نهض وعاد لي باليوم صور فوتوغرافية .. وقال في نشوة:
- سوف نجد صورته هنا حتماً..-

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع.. وحين يهلك آخر شعاع ضوء..
قال لي الأستاذ (فتحي) وهو يحك أنفه كعادته كلما تكلم:
- نعم .. اعترف أن القلق يعتصر قلوبنا .. لكننا على الأقل نملك بصيصاً من الأمل في أن نراه مرة أخرى .. هذا أفضل بمراحل من أصدقائه الذين عرف أهلهم الحقيقة ..
ثم تدارك وقال كأنما هو يفكر بصوت مسموع:
- أم أن أهل هؤلاء أفضل حالاً منا ؟!... لا اعرف بالضبط ...-
كنت أصغي له بينما الشفقة تعتمل في نفسي .. سوف يتصلون به قريباً.. سوف يخبرونه ..
لو لم يطلب مني د. (عبد الغفار) أن ألتزم الصمت لصارحته وانتهى الأمر ..
أشلاء الشخص السابح في مكان الانفجار هي أشلاء ابنه (ياسر) .. فحص البصمات يؤكد هذا .. إن بصماته لدى الشرطة منذ اختفائه .. يبدو أنهم حصلوا على كوب أو أداة كان يستعملها ورفعوا البصمات من عليها وهم الآن علي يقين تام بأن الشخص السابح هو (ياسر) بالذات .. أما الجزء المهم في الموضوع فهو أنه لم يمت لحظة الانفجار .. لقد مات قبلها بكثير ..
شعرت بحاستي أن مفتاح اللغز يكمن في هذا الشخص السابح .. بالنسبة لل ستة الآخرين تبدو القصة متجانسة مترابطة .. الموت أو الإصابة بانفجار .. هذا من حقهم .. لكن ماذا يفعل السابح الذي لم يمت بانفجار وسط هؤلاء ؟
طبعاً لا داعي لذكر أنني رأيت صور (ياسر) وتأكدت يقيناً من أنه ليس ذلك الشاب

أدركت أن هذا الألبوم تسليته الوحيدة .. وقررت أن أشاهده بحثاً عن صورة ابني الذي هو صديق (ياسر) الحميم .. سوف أبحث عن مناسبة أسأل فيها عن آخر مرة شوهد فيها ابنه ومع من خرج آخر مرة ...
 راح يقلب الصور .. أطفال في مدرسة .. مراهقون في مدرسة .. صف من الشباب يقف ضاحكاً بينما الصف الخلفي يرفع أصابعه ليرسم أذاناً للصف الأمامي .. الهراء المعتاد .. أخرج الأب صورة تمثل مجموعة شباب يقفون على شاطئ ماء وقال:
 - هذه هي الشلة .. قلما افترق هؤلاء منذ الصف الثالث الإعدادي .. هل تعرفهم ؟ .. هذا هو (ياسر) .. ثم (نادر) و(معتز) و(محمد) .. هذا البدين هو (محسن) .. ثم هذا هو (جلال) ... فليرحمهم الله جميعاً ..
 كانت عيناى تبحثان في لهفة بين الوجوه عن وجه ذلك الفتى الذي زارني في مكثبي .. لا ، ليس بينهم .. ليس من الشلة على الإطلاق ..
 قلبت الصفحة فوقعت عيناى على صالتي ..
 هذا هو (ياسر) يقف مع ذلك الشاب بعينه .. وهناك من يخطف شيئاً من واحد آخر .. مزاح الشباب إياه الذي لا يخلو من غلظة ..
 سألت الأب مشيراً للصورة:
 - من هذا ؟ -

ثبت عويناته جيداً ثم قال بثقة:
 - هذا (شاكر) ... ليس من الشلة لكنه فتى لا بأس به ..
 - هل زاركم هنا ؟ -
 - أحياناً .. وكان (ياسر) يخرج معه .. كل هذه الأسئلة وجهها لي رجال الشرطة من قبل .. لكن لا أعتقد أن للفتى علاقة بأي شيء ..
 قلت له وأنا انهض:
 - هلاً أعرتني هذه الصورة ؟ ... ثق بأنني سأعيدها لك في أقرب فرصة ..
 لم يبد متحمساً للفكرة .. لكنه لم ير فيها ضرراً خاصة أن ملامح ابنه ليست واضحة فيها .. هكذا وافق .. وهكذا غادرت داره غارقاً في التفكير

خمس جثث لأصدقاء من شلة واحدة .. جثة سادسة ماتت قبل الانفجار .. شخص سابع لا يمت للشلة بصلة .. ولم يمت في الانفجار ... ستة أشخاص اجتمعوا في ذلك المخزن لطقوس غامضة ثم حدث الانفجار .. هل كانوا يعرفون بوجود بقايا (ياسر) هناك ؟ ...
 كيف مات (ياسر) ؟ ...
 - احترس أبها الحمار !! -
 وأنت الغرامل بينما سائق العربة يحاول منع المصيبة التالية فوثبت إلى الإفريز .. بينما هو يطلق علي فيضاً من السباب استأهله بجدارة .. مشكلتي أنني لا أقدر على الجمع بين التفكير العميق والبقاء حياً .. هذان نشاطان بشريان لا يجتمعان
 فما أن أبغيت أنني سليم حتى عدت إلي التفكير
 هل هو (شاكر) أم (بدر) أم (محمود) أم (كمال) ؟
 ماذا كان يفعله في المخزن مع هؤلاء ؟ ..
 من هو القادم ليلاً الذي ينذره بأنه لا فرار .. ؟

- هل أبدأ من هنا يا دكتور؟

- بل من هنا ..

وأشرت إلى موضع في الأرض قدرت أنه لم يمس منذ الانفجار .. كان موضعه هو أفضل لكتني قررت أن ألعب دور من يعرف ما يفعله ..

بدأ الرجل بحفر والعرق بغمرة بهذه السرعة قبل أن يبدأ .. أحب هذا الحماس .. أشفقت عليه من كل هذا الجهد العضلي ثم قلت لنفسى إن هناك أشخاصاً يناسب تكوينهم هذه الأعمال العنيفة بينما أنا يناسبني أكثر - لحظة للهاث - الجهد الفكري .. هذا الجهد يتعب قلبي ويجعلني أغرق في العرق ..

كان المخزن مخيفاً في ضوء الغروب .. المنطقة صارت مهجورة تقريباً ولم يبق فيه أصلاً ما يصلح لأن تدعوه (مخزن) بقلب مستريح .. فقط هناك أربعة أطلال تذكر بالأطلال التي كان شعراء العرب يشيرون في معلقاتهم عندما يمرون بها .. وكأنها (مراجيح وشم في نواشر معصم) ..

كان هنا انفجار مروع أزال السقف وأكثر الجدران .. تحول المخزن إلى أطلال ينحى فيها اليوم وتتخذها الكلاب الضالة مأوى وحماماً...

كنت أعرف أن بعض الإجابة على أسئلتى هناك لذا بحثت عن أحد العمال الذين يبيعون جهدهم العضلي ولا يسألون كثيراً... طبعاً أصابته الدهشة لأنه كان يتوقع أن أطلب منه حمل (مترين) من الرمال إلى الطابق الرابع أو أي شيء من هذا القبيل .. لكن الحفر في مخزن مهدم ..؟

- هل تبحث - بلا قافية - عن مال مدفون هنا؟

- تقريباً..

وكنت أعرف أن هذا المكان لم يعد في نطاق عمل الشرطة .. لم يعد دليلاً.. ليس هناك حارس أو خفير .. لقد عاد المخزن المهدم إلى ما كان عليه: مجرد مخزن مهدم ...

والآن - عند الغروب تحاشياً للأسئلة - أفق هنا أراقب عملية الحفر .. سوف أعمل بطريقة عشوائية .. أنتقي أكثر من موضع .. ربما وجدت شيئاً أو لم أجد ...

اسم العامل (صميذة) .. من (موشى) بالصعيد .. لديه زوجتان وسبعة أطفال لم يرهم منذ عام ... الحقيقة أنه اعتبر أن عليه أن يقدم لي تقريراً واقعياً عن أحواله العائلية وهو يعمل .. لسبب ما اعتبرني فضولياً جداً وراح يروي هذا الفضول ...

لديه ألام في أسفل الظهر وتضخم بالبروستاتا .. وقد عولج من البلهارسيا منذ عامين لكن ...

كانت الأرض ترابية .. وعليها آثار عشرات الأقدام ..

مساحة المخزن ذاتها لا تتجاوز ستة أمتار في خمسة أمتار .. لا اعتقد أن معامل التخليل تحتاج إلى مساحة أكبر .. مكان خال تماماً إلا من بقايا براميل خشبية لا أعرف إن كانت كذلك من البداية أم أن الانفجار هو السبب ..

ما الذي يدفع إنساناً بكامل قواه العقلية إلى إحضار أسطوانة غاز إلى هذا المكان ؟

هناك الآن حفرة .. حفرتان .. طلبت منه إلا يبالغ في عمق الحفرة .. أريدها حفراً

استكشافية كالتي يحدثها أي نمس في حديقة ..

لكن الظلام يزحف والرجل يعرق وأنا أشعر بالملل ..

من الجلي أنه لا يوجد شيء وأنا أحرق ...

- يبدو أن الأمر قد انتهى يا ريس ص -

هنا سمعته يصرخ كأنه امرأة هستيرية مصابة بسرطان الحنجرة داست على ثعبان

الآن أرى العظام .. عظام إنسان بلا شك ...
تراجع هو للوراء وراح ينسمل ويحوقل .. إنه صعيدي ثابت الغؤاد لكنه لم يتوقع هذه
المفاجأة .. الظلام والخرائب .. كل هذا أوقف فيه تراثاً هائلاً من قصص الغولة والجان
مشفوقى الأعين بالطول .. فلن يندهش لو وجد أنني تحولت إلى عملاق أزرق اللون ..
انحنيت وتفحصت العظام ..
لو كنت سعيد الحظ لو حدث أن ...
لكن هذه عظام طفل .. !.. أكره أن أقول هذا لكنها الحقيقة ...
عظام طفل .. وهذا يعني أنها لا تمت بصلة لذلك الفتى (ياسر) ...
هذا المخزن ليس مخزناً قدر ما هو سلة مهملات كبيرة ...
أو خزانة مأكولات ...؟

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع ..
من جديد ظهر الشيخ المؤلف على الباب ..
كان في الآونة الأخيرة قد صار أكثر انتظاماً في مواعيده .. غالباً ما يظهر في الدقيقة
الأخيرة قبل منتصف الليل ..
- من قبضة القادم ليلاً.. لا أحد يفر..-
برغم أن هذه اللقاءات معتادة ويومية فإنه ما زال يرتجف هلعاً من تلك اللحظة .. استجمع
شجاعته وصاح بالعبارة التي تمنى أن يسألها:
- من أنت ؟.. ماذا تريد مني ؟-
أرادها غاضبة فخرجت أقرب إلى بكاء متوسل ..
- أنا القادم ليلاً .. أريدك ألا تنسى ..-
- أنسى ماذا ؟-
- مادمت سألت فأنت نسيت .. سوف تتذكر أو موتاً تموت ..-
ثم توارى الشيخ من جديد ..
جلس في الفراش يرتجف .. ما سر هذه الزيارات ؟.. إن حياته معقدة بما يكفي فلا تحتاج
إلى المزيد ..
ولماذا لا يتذكر ؟.. لماذا لا ترتاد الخيالات ذاكرته ؟.. لم يستعد أية ذكرى منذ الحادث إلا هذه
الغرفة الصغيرة التي بقيم فيها ..
قرر أن يزور العجوز (رفعت إسماعيل) غداً ليرى ما لديه ..

وقف على باب شفتي وابتسم ..
أنا من أعطاه عنوان البيت وعلى أن أتجمل ..
أمرت الأشخاص الذين يعتبرون ظهورهم هدية الأقدار لروح معذبة، لذا قلت له في نفاذ صبر:

- هلا دخلت من فضلك ؟.. إلا لو كنت تقدم إعلاناً عن معجون أسنان ..
لم يفهم الدعابة لأنه لا يفهم طريقي .. لكنه دخل على كل حال ..
قلت له :

- هل من خيوط أخرى ؟-

حكى لي كل ما استجد في قصته في الفترة الأخيرة .. وقال إنه لا يملك أية أرضية ليعتقد أنني محق بصدد نظرية (الصحفي - المغامر - الذي - غير - اسمه) ..
أخرجت صورة ووضعتها تحت أنفه وقلت بلهجة المنتصر:

- هل تعرف هذا الفتى ؟-

نظر للصورة طويلاً .. لن أعرف إذا كان لا يتذكر أم هو يتظاهر بذلك .. فقط قال في هدوء:

- لا أعرفه .. لكن هذه صورتي بالتأكيد ..
قلت :

- المفترض أنك صديقه وتدعى (شاكر) .. الفتى يدعى (ياسر) .. وهو من شلة المخزن المنفجر-

- هذا طبيعي .. أعتقد أنني كنت من الشلة أيضاً ..-

- لا لم تكن من الشلة .. لكنك صديق (ياسر) .. و(ياسر) قد توفي في ظروف شنيعة قبل الانفجار بوقت طويل ..-

نظر لي في حيرة وقال:

- لا أفهم .. ماذا ترمي إليه ؟-

قلت في ضيق:

- ليتني أعرف .. كأن عطسة تريد أن تخرج مني فلا تكتمل .. بيت الشعر جاهز لا ينقصه إلا حرف الروي .. كنت أمل أن تقدم لي أنت هذه المساعدة الأخيرة .. ساعدني على إخراج العطسة !-

هنا دق جرس الهاتف .. فرفعت السماعة ورحت أصغي بعض الوقت ..
في النهاية قلت للمتكلم:

- لا .. لا داعي .. لقد جربنا هذا كثيراً .. أعتقد أن النتائج صحيحة ..
ثم وضعت السماعة ..

- أستميحك عذراً لحظة ..-

وتوجهت إلى غرفة نومي .. فبحثت عن زجاجة (النيتروجليسرين) ووضعت قرصاً تحت لساني .. وانتظرت قليلاً حتى راح النبض يتردد في جمجمتي والصداع ...

ثم اتجهت إلى المطبخ .. فأعددت له مشروباً ثم دسست السكين في جيب الروب الذي أرتديه وعدت له ..

وضعت الكوب أمامه فتأمل المشروب في فضول وقال:

- ما هذا ؟-

- عصير طماطم محلى .. جربه فلن تجده رديئاً ..-

رفع الكوب إلى فمه وجرع جرعة كبيرة، ثم بدا عليه الرضا وقال:

- لا أعرف ما هو .. لكنه منعش لذيق ..-

قلت وأنا أجلس على مسافة بعيدة منه:

- هل تعرف الهاتف الذي جاءني الآن؟ .. إنها المستشفى .. كنت قد طلبت أرقام آخر تحليل أجريته هناك .. إن صورة دمك عجيبة فعلاً.. هل تعرف ما يحتويه دمك من مادة الهيموجلوبين؟ ..-

- لست طبيباً يا سيدي فلا تتعبني بالأرقام ..-

- لا يجب أن تكون طبيباً كي تعرف أن خمسة أقل من تسعة .. وأن الصغير أقل من الاثنين .. فقر الدم يبدأ حين يقل الهيموجلوبين عن أحد عشر جراماً تقريباً.. نفكر في نقل الدم حين يتدنى الرقم عن تسعة .. ثلاثة لا يتفق مع الحياة أصلاً.. لكن ماذا تقول عن رقم (صفر)؟-

اتسعت عيناه ونظر لي في حذر، فقلت:

- نعم .. الهيموجلوبين عندك صفر .. لقد قاموا بتكرار التحليل عدة مرات وفي كل مرة يظفرون بالنتيجة ذاتها .. هل تعرف معنى هذا؟-

نظر لي ولم يعلق، وكان قد فرغ من الشرب فوضع الكوب على المنضدة .. فأضفت:

- هذا الذي تشربه وتستسيغه ليس سوى كبد بقري نبيئ أعددته لغدائي، لكنني قمت الآن بخفقه بالخلاط، وأضفت بعض السكر له .. هذا مشروب مقزز لا يتحمله كائن طبيعي .. لكنك شربته وأحببته ولم تلحظ شيئاً غريباً فيه .. بينما لم تعد تطيق أي نوع من الأطعمة ولا المشروبات العادية .. هل تعرف معنى هذا؟-

اتسعت عيناه أكثر ووضع يده على رأسه فقلت:

- المخزن الذي انفجر لم يكن مخزناً.. كان غرفة طعام .. ثمة غول كان يقتاد ضحاياه إلى هناك .. أعتقد أن (ياسر) كان آخر ضحاياك ... وأعتقد كذلك أن الأصدقاء خمنوا حقيقتك وقرروا أن ينهوا اللعبة معك .. استدرجوك إلى هناك وحاولوا إحراقك .. لكنهم كانوا حمقى وحدث الانفجار الذي أودى بهم جميعاً.. وبقيت أنت حياً لكنك نسيت كينونتك .. إنك تستمد وجودك من الآخرين، وربما كانت قياسات المستشفى في البداية تدل على آخر وجبة التهمتها .. كان الهيموجلوبين منخفضاً جداً لكنه موجود-

هل عيناى تخدعاني أم أن ملامحه تتغير؟

واصلت الكلام:

- لا يعلم إلا الله من أنت حقاً.. أنت تمارس أكثر من حياة مع أكثر من شخص .. والغرض أن تقتادهم جميعاً بكامل إرادتهم الجرة إلى المخزن لتنتهي ما بدأت .. هذا هو كل ما عندي يا بني .. وآخر ما يجب أن أقوله هو أنني دسست لك كمية لا بأس بها من أقراص المنوم في هذا المشروب .. لا أعرف إن كان سيؤثر فيك لكني أعتقد أنك احتفظت ببعض الصفات الفسيولوجية البشرية برغم كل شيء .. أما إن لم يؤثر .. فعندي حل آخر ..-

وأخرجت السكين من حيب الروب ..

- لن أؤذيك .. لكنني سأنقل خواطري للشرطة .. ولسوف يأخذونك نائماً إلى حيث يعرفون حقاً ما علاقتك بهؤلاء الفتية و(ياسر) ..-

هنا راح رأسه يتأرجح ..
حمداً لله .. اعتقد أنه سينام فعلاً..
راح يردد من بين أسنانه التي خيل لي أنها مدببة:

-نعم .. نعم .. الآن أتذكر .. البلهاء تهامسوا .. يبدو أن (ياسر) هذا كان قد ترك رسالة
لأحدهم يخبره بموعدنا في المخزن .. قررنا أنني قتلته .. يبدو أن أحدهم فتش المخزن
وخمن ما أفعله .. هكذا طلبوا لقائي هناك .. كانوا مزودين بكتاب سحر قديم ومعهم تلك
الأسطوانة .. أه .. المخابيل .. عود ثقاب أمام صمام الأسطوانة واللهب مسلط علي .. أنا لا
أموت بهذه الطريقة .. انفجار .. كلهم ماتوا .. الآن أتذكر ..-

ثم راح يصرخ وهو ينظر إلى السقف:

- - القادم ليلاً هو أبي .. نعم .. نعم .. أنا في قبضته .. لا فرار لي .. سأظل كما كنت ..
يأتيني كل مساء ليذكرني بمهمتي .. لا فرار .. لا فرار ..-

كنت أنا في حالة سيئة بالطبع .. لماذا لا ينام هذا الأحمق؟؟

قال وقد صار وجهه غريباً بالفعل .. وجهاً لا يمت له بصلة:

- - أنت أعدت لي ذكرياتي .. الآن أعرف من أنا .. أنا غول وسأظل كذلك! ... -

وقبل أن أفهم ما يحدث كان قد وثب من مقعده وبضربة واحدة وحدث نفسي في نهاية
الصالة جوار مدخل المطبخ .. هنا فقط عرفت أن الأقراص المنومة لا تؤثر في المسوخ ..
كان الآن يصدر زئيراً كالديبة .. ويبد مرتعشة فتح الرجاج وغادر الشقة ..

لا بد أنني استغرقت ربع ساعة راقداً على الأرض تؤلمني عظامي ... لا اصدق أنه
ذهب

لكنه فعل ذلك ..

هو القادم ليلاً..

لماذا تركني ؟

لا أعتقد أن هناك تفسيرات كثيرة .. تركني لأنه بحاجة إلى أن يخلو بنفسه
موقف عسير بعض الشيء .. أن تفقد ذاكرتك وتقضي وقتاً في محاولة استعادتها فقط
لتكتشف أنك غول!...تفقد وسط مجموعة من البحث لتعرف أنك مسئول - بشكل ما - عن
قتلهم ..

والآن ترى ما هي خطوته التالية ؟

هل يعود لي ؟

ما هو عنوانه ؟.. المشكلة أنني لا أعرف من هو حقاً .. هل هو (بدر) ساكن السطح
المتزوج سراً من جارتة الحسناء ؟.. أم هو (كمال) المتورط في صفقة مشبوهة ما مع رجل
مشبوه ؟.. أم هو (محمود) الذي يريد أن يترك زوجته ؟.. أم هو الصحفي (عصام) الذي لا
ينعم بعلاقة طيبة مع رئيس التحرير ؟.. أم هو (شاكر) الذي كان صديقاً لـ (ياسر) ؟...
هناك خيط واحد يمكن أن يبدأ به ...

الشك والجذر طبيعة المحامين، لذا لم يبد الأستاذ (فهمي) على استعداد على الإطلاق لتصديق قصتي المعقدة عن صديقي (محمود) الذي أريد الاتصال به .. قلت له ملجأ:

- - ليكن .. لا عناوين .. لكنني أريد رقم هاتف .. -

فكر قليلاً وراح يتأملني ثم سألني بلا تكليف:

- هل أنت تعمل مع (جابر) ؟ .. -

- (جابر) من ؟ -

- (جابر عبد الستار) المحامي .. -

تذكرت الاسم .. هكذا قلت في ثقة وهذوء:

- لا أعرفه .. لكنني أريد أن أعرف نوعية الخطر أو الأذى الذي يمكن أن يحدث لو أطلعتني

على رقم هاتف (محمود) -

- لا أعرف .. لهذا لا أعطيه لك .. كل ما لا أعرفه يجعلني أنكمش وأكون أكثر حذراً... لا

تؤاخذني لكن هذه طبيعة المحامين.. -

رحت أفكر في حل .. في النهاية لم أجد .. هكذا نهضت محبطاً..

هنا قال لي وهو بخط شيئاً على ورقة:

- هاك رقم هاتف زوجته .. مدام (عزة)... لو كنت تعمل معها فأنت تعرفه .. لو كنت صادقاً

فهني ستخبرك بكل شيء .. -

قلت له وأنا أفكر ملياً:

- لقد غيرت رقم هاتفها .. -

- وهذا هو الهاتف الجديد .. -

ثم أرخى وجهه ونظر لي بما معناه (هل - من - شيء - آخر - تطلبه - فلا - أمنحك - إياه - ؟) ..

قلت له وأنا أدس الرقم في جيبتي:

- ربما كان هذا كافياً.. شكراً.. -

كانت (عزة) - بطبيعة الحال - أكثر حذراً..

قلت لها إن لدي أشياء مهمة بصدد زوجها، وإنني راغب فعلاً في لقائها في أي مكان

تحدده ..

قالت في حدة:

- لكنني لن أقابلك في مكان عام ولا في بيتي .. -

جميل .. جميل .. قلت لها في برود:

- ليكن .. ربما أستطيع العثور على كهف في أعماق المحيط أو وسط جبال القمر .. ربما

في عالم مواز لو أردت .. -

- هل تمزح ؟ -

- طبعاً أمزح .. الاقتراحات العجيبة لا تستحق إلا المزاح .. -

فكرت قليلاً.. الحقيقة أنها فعلاً كانت راغبة في معرفة ما أحمله، لذا حددت لي مكاناً ألقاها

فيه، وسوف تلتقطني بسيارتها وتتم المحادثة هناك .. إجراءات معقدة جداً سوف تتخلى

عنها فوراً لو رأت مظهري المتهالك .. لا أصلح للعب دور (ستيغان روستي) في الأفلام

القديمة أبداً..

وكان اللقاء مختصراً.. هي كما وصفها زوجها وألعن .. متحذقة .. تداري عينها بتلك العيونات

السوداء فلا تعرف كيف تبدو روحها .. تذكرني بالطلاء الأزرق الذي كنا ندهنه على النوافذ

عام ١٩٦٧ إنقاء للغارات .. كذلك هي تطلي نافذة روحها بهذا اللون الأسود فلا تعرف حقاً ما

تفكر فيه ..

كنت مختصراً؛ زوجها يعاني مشكلة نفسية عويصة ولا بد من أن أجده، ولا بد من أن تخبرني لو طلب لقاءها

هي كانت مختصرة؛ قابلته من عام وتحابا وتزوجا .. لكنه بدأ يتبعد عنها وهو يريد الطلاق من فترة .. لكنه يريد طلاقاً بموافقتها .. تعتقد أنه يميل لواحدة أخرى .. ثم فكرت قليلاً وأضافت:

- هناك بيت لكنه لا يذهب إليه .. أنا متأكدة من هذا ..
 (سيذهب الآن بعد ما استعاد ذاكرته) ... هكذا قلت لنفسي ..
 - أمسكت بورقة صغيرة وراحت تخط لي عنواناً؛
 - إنه بيت في عزبة ريفية .. هذا البيت يخص أسرته كما قال .. هذا هو العنوان .. اسم القرية ..
 - هل قابلت أسرته؟
 - لا .. زيجتنا كانت غريبة في كل شيء .. ويبدو أنها ستنتهي نهاية أغرب ..
 ثم توقفت بما معناه أن بوسعي الرحيل فقد انتهى الكلام...
 ترحلت من السيارة .. فانطلقت لا تلوي على شيء ..
 - لا تنسي أن تتصلي لو
 لكنها كانت قد ابتعدت وسط سحابة من دخان الزيت المحترق الذي ينبعث بنهاية عمر موتور هذه السيارة قريباً بعون الله ..
 لا أعرف إن كنت أفدتها ..

هو..

قال لي الرائد (عزت) وهو يشعل لفافة تبغ أخرى :

- لماذا تعتقد أنه سيظهر هنا بالذات؟
 كنت انظر إلى العزبة التي تقترب، وقلت له:

- مجرد حدس .. هو لن يستخدم المخزن، بينما استعاد ذاكرته فلا بد أنه تذكر هذه العزبة ..
 ثم أضفت بخيبة أمل:

- بالطبع ما لم يكن عنده مكان آخر أنسب..
 قال الرائد (سالم) الجالس في المقعد الخلفي، وهو يلهث بسبب ضيق المكان بالنسبة لجسده الضخم:

- الحقيقة أننا لا نصدق حرفاً ما تقول يا دكتور .. لكن هذا الرجل مثير للاهتمام فعلاً.. لا توجد معلومة واحدة ثابتة عنه .. لا نعرف من أين نبدأ.. التوكيل في مكتب المجامي مزور .. الأوراق التي قدمها للجريدة مزورة .. حتى أوراق امتلاك هذه العزبة لا نعرف أين هي .. هذا رجل لا يمسك الإمساك ببدايته، وهذه هي النقطة الوحيدة التي تهمننا ..
 كان الرائد (عزت) هو الذي يقود سيارته .. شاب وسيم هو أقرب من زميله إلى تصورنا لضابط الشرطة عامة.. ومن الواضح طبعاً أن هذه الرحلة تتم بشكل غير رسمي، وعلى مسئوليتي الشخصية .. إن العلاقات الشخصية تجدي أحياناً... لكنهم لم يستطيعوا إثبات أن صاحب العزبة هو نفسه المزور .. هكذا كان قرارهم هو: فلنذهب ونلق نظرة ... وأنا لم أكن أهتم بالتزوير .. كنت مهتماً بأشياء أخرى نعرفونها جيداً...

أخيراً نرى الحقول الممتدة .. هناك أشجار نخيل وحقل من الذرة .. ثمّة مجرى ماء وبيت بسيط يقف وسط المكان كأنما هو يستشرف القادمين ..
قال (عزت):

- لا أرى خفاء ولا أحيراً ولا خولياً ولا أي شيء .. هذا المكان مقفر ..
- لا تعتمد على هذا ..

قالها زميله وهو يشير من النافذة ..
بالفعل كانت هناك سيارة تقف هناك .. على بعد خمسين متراً ...
سيارة (فيات) زرقاء أعرفها جيداً وأعتقد أن محركها يحتاج إلى (عمرة) سريعة ..
أطلقت سبة برغمي، وعمغمت:

- الحمقاء! ... كان يجب أن تخبرني !-
نظر لي الرائد (سالم) وقال:

- هل تعرف السيارة؟-
- سيارة زوجته .. أعتقد أنها جاءت لتخبره بالأحمق الذي سألها عنه .. -

أوقف (عزت) السيارة، وفتح الباب .. وتأوه من ألم استرخاء عضلات ساقيه بعد كل هذه القيادة .. ثم أشار لنا كي نترجل ..

- سنذهب لنلقي التحية...-
قال زميله:

- لاحظ أن وضعنا غير رسمي ..
- لن يسألنا عن أوراقنا .. فقط أريد أن أراه رأي العين ..
وهكذا انفتح بابان وترجل رحلان ...

على الباب توقف (عزت) كأنه في فيلم سينمائي في وضع توقف الكادر Freeze frame ..
وكانت يده في الهواء موشكة على الدق ..

تصلب قليلاً ثم أصاح السمع ..
- هل يحتفظون بكلب هنا؟-
- لا أعرف ..

نظر لي ولصاحبه ثم مد يده إلى الباب .. ثم تراجع ..
- أرى أن نبحث عن مدخل آخر ..

وهكذا رحنا ندور حول البناية في حذر ..
هناك باب خلفي متداع .. حالته لا تسمح بغلقه على كل حال .. ونظر لنا نظرة أدركنا معها أننا سننسلل دون جلبة من هذا الباب ..
همس (سالم):

- لاحظ أننا لا نحمل إذناً بالتفتيش ..
قال في تصميم وهو يفتح الباب:
- لاحظت هذا ..

ثم اجتاز المدخل وتبعته .. من الطريف أنني الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يدخل .. إن
تهمة التسلسل لممتلكات خاصة لا تساوي تهمة اقتحام بيت دون إذن من النيابة ..
لكن هذه الضجة مستمرة بالفعل
أذكر هذا الصوت .. ليس صوت كلب .. بل هو أقرب لصوت
دب ؟!

- كان الآن يصدر زئيراً كالذبابة .. وببد مرتعشة فتح الرجاج وغادر الشقة ..-

البيت يتكون من طابقين ... بناء بدائي صممه مهندس مخبول على الأرجح ... لا يوجد
بلاط .. كل شيء يوحي بأنه في مرحلة (التشطيب) يوماً ما .. لا يوجد أثاث من أي نوع ...
ثمة ممر على اليمين .. مشينا وراء (عزت) ونحن لا نكف عن التلفت ...
دخل الممر فبلغ نهايته التي تطل على ما يبدو على ساحة .. تلك الساحات المخصصة
لتربية الماشية .. حظيرة مكشوفة أو شيء من هذا القبيل ..
هنا توقف في مكانه فاصطدمت به من الخلف ...
وسمعتة يغمغم:
- يا أرحم الراحمين !!-

كان المشهد عسيراً على التصديق ...
سأحاول أن أكون مختصراً .. أنت تملك خيالاً وبممكنك تصويره ..
لقد بدا لنا ذلك الغتي بالفعل كأنه دب حقيقي .. دب آدمي .. وكانت فريسته هناك .. بعضها
على الأرض وبعضها معلقاً على خطاطيف .. المخيف في الأمر أنها لم تكن الفريسة
الوحيدة ...
يزحف على أربع ويطلق ذلك الزئير المخيف
لقد ارتكبت (عزة) خطأ حياتها حين ذهبت لتلقاه وحدها بعد ما استعاد ذاكرته ..
لقد تذكر من هو الآن تماماً.. وعاد يمارس عمله الذي كان يمارسه منذ .. يعلم الله منذ
متى ..
وهتف (عزت) وهو يخرج مسدسه:
- أطلق الرصاص يا (سالم) !!.. اضرب (في المليان) !!-
ولم يكن (سالم) بحاجة إلى دعوة لأنه راح يطلق الرصاص في هستيريا وقد افقده
المشهد كل تعقل ..
- يا أرحم الراحمين !!.. يا أرحم الراحمين !-
لكنني توقعت ما سيحدث ..
الدب الأدمي يستدير نحونا ويزأر من فمه الملوث بالدماء
لن يقتله الرصاص يا سادة .. الوحش الذي ينجو من انفجار مروع .. الوحش الذي لم يتجاوز
صغ الهيموكلوبين في دمه صفراً... لن يقتله الرصاص ..

لهذا أعد الشباب كتب السحر والرموز الدينية وأسطوانة الغاز .. لقد كانوا يعرفون ما ينتظرهم ..

تركت المشهد الدامي وحريت نحو السيارة ...

صوت الطلقات يدوي .. لا بد أن هذا الشيء قد تلقى عشر طلقات على الأقل .. وما زال يزمجر ...

لا بد أنني فقدت وعيي لثوان ثم استعدته لأجد أنني ممدد على مقدمة السيارة .. عرفت أنها ثوان لأن الطلقات استمرت..ثم برز لي الرائد (سالم) وهو يتصبب عرقاً...

فتح باب السيارة ومن (التابلوه) تناول مجموعة من الطلقات وراح يحشو مسدسه ويده ترتجف ..

صحت فيه:

- لن يحدث هذا .. هل لديكما بنزين؟-

فتح الخفية الخلفي وأخرج (جركن) مليئاً بالسائل الحارق ...

هكذا عدنا إلى البناية حيث كان الرائد (عزت) يطلق الرصاص على الشيء .. هذه الطلقات كانت تعوق تقدمه لكنها لا تحدث أي أثر فيه ..

صحت وأنا أفتح (الجركن):

- توقف .. سنحرقه الآن!-

وبعثت السائل الخطر على الوحش ...

هنا حدث شيء غريب

لقد وقف على قدميه الخلفيتين ونظر نحوي .. بعينين من نار نظر لي ... ومن فمه الدامي خرجت الكلمات التالية:

- لن تجدي النيران .. صوب على الرأس!-

لم ينتظر (عزت) أكثر .. بل أحكم التصويب نحو رأس الشيء وانطلقت الرصاصة ..

وفي اللحظة التالية تهاوى الشيء أرضاً.....

أما (سالم) فقد أشعل عود ثقاب وألقاه على كتلة البنزين ... وسمعنا الـ (فهام!) المميزة وشعرنا بأن وجوهنا تحترق فتراجعنا ..

قلت له وأنا ارتجف:

- لقد أراد أن يموت .. هذا الدور لم يرق له ..-

- ماذا تقول؟-

- لا شيء .. -

وابتعدنا عن المنظر الفظيع ..

هنا سمعنا صوتاً يختلف .. صوت عويل .. صوتاً يذكرك بعويل الذئاب في الصحاري المقفرة ..

هتف الرائد (عزت) وهو يلهث من فرط انفعال:

- ما هذا؟-

زحفت بحذر إلى حيث كانت تلك الحظيرة والتي كانت مسرحاً لهذه الأحداث الشنيعة ..
كانت النيران تنتشر الآن ...
ووسط ألسنة اللهب خيل إلي أنني أرى شبحاً .. شبحاً بلا رأس .. فارغ القامة .. ينحني
وسط النيران على الجسد الممدد ومن فم لا أعرف أين هو يطلق ذلك العويل ..
لقد كان يحتضن ابنه .. ابنه الذي فضل الموت على حياة أدرك أنها كانت حياته ..
لقد جاء القادم ليلاً .. لكنه جاء في ضوء النهار ..
كان الصوت القادم من لا مكان يقول:
- الدم .. الدم !!! الانتقام !-
هرعت إلى الضابطين وابتلعت ربيقي وقلت:
- لا أرى وقتاً خيراً من هذا للفرار .. !-
لم يسألأ أكثر وسرعان ما كنا في السيارة التي تطوي المسافات .. لم يعد من أثر لنا إلا
سحابة دخان تعتلي السماء .. وصوت عويل يتعد أكثر فأكثر ...

اعتقد الضابطان أنها النهاية ..
لم تعد هناك مشاكل إلا تقديم تقرير يفنح الرؤساء ..
وقال لي أحدهما وهو يحاول التصويب على لغافة تبغ مرتجفة متدلية من فمه:
- رباه !!! لقد عرفت ما سآراه في كوابيسي بقية حياتي ..-
وقال الآخر:
- لكن الكابوس انتهى .. هذا ما أعتقد ..-
لكني كنت أعرف أفضل ...
القادم ليلاً لا يجدي معه الإسراع بالسيارة .. وكما يقول الأمريكيون في قصص رعاة البقر:
أعطني يوماً انعي فيه قتلاي بعدها آتي إليك ..
لا أعرف إن كانت الشياطين تحمل نزعاً للانتقام لأبنائهم لكني متأكد من أنها تحب
الانتقام .. وبالتأكيد تستطيع العثور على ضحاياها .. لا تحتاج إلى عناوين ولا أرقام هاتف ...
وبعد أيام حين قرأت خبر اختفاء المحامي (فهمي) رحلت أفكر .. هل هو الوحيد ؟ .. ربما
اختفت (مها) وربما اختفت تلك الفتاة سكرتيرة الجريدة .. ترى ما اسم ذلك الرجل الذي
كان يرتب لصفقة غامضة مع (كمال) ؟
ربما وجد القادم ليلاً من يمارس المهنة من بعد ابنه ..
ربما يفعل هذا بنفسه ..
ربما يأتي ذات ليلة لأجده واقفاً على باب حجرتي ...
- أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر ..-

انتهت القصة إذن ..
وكان لي موعد مع مصاصة دماء مخيفة بالفعل .. شخصية مهمة جداً في الأساطير
العبرانية .. هل خمنت أنها (ليليث) ؟ ...
لكن هذه قصة أخرى ...
د. رفعت إسماعيل القاهرة